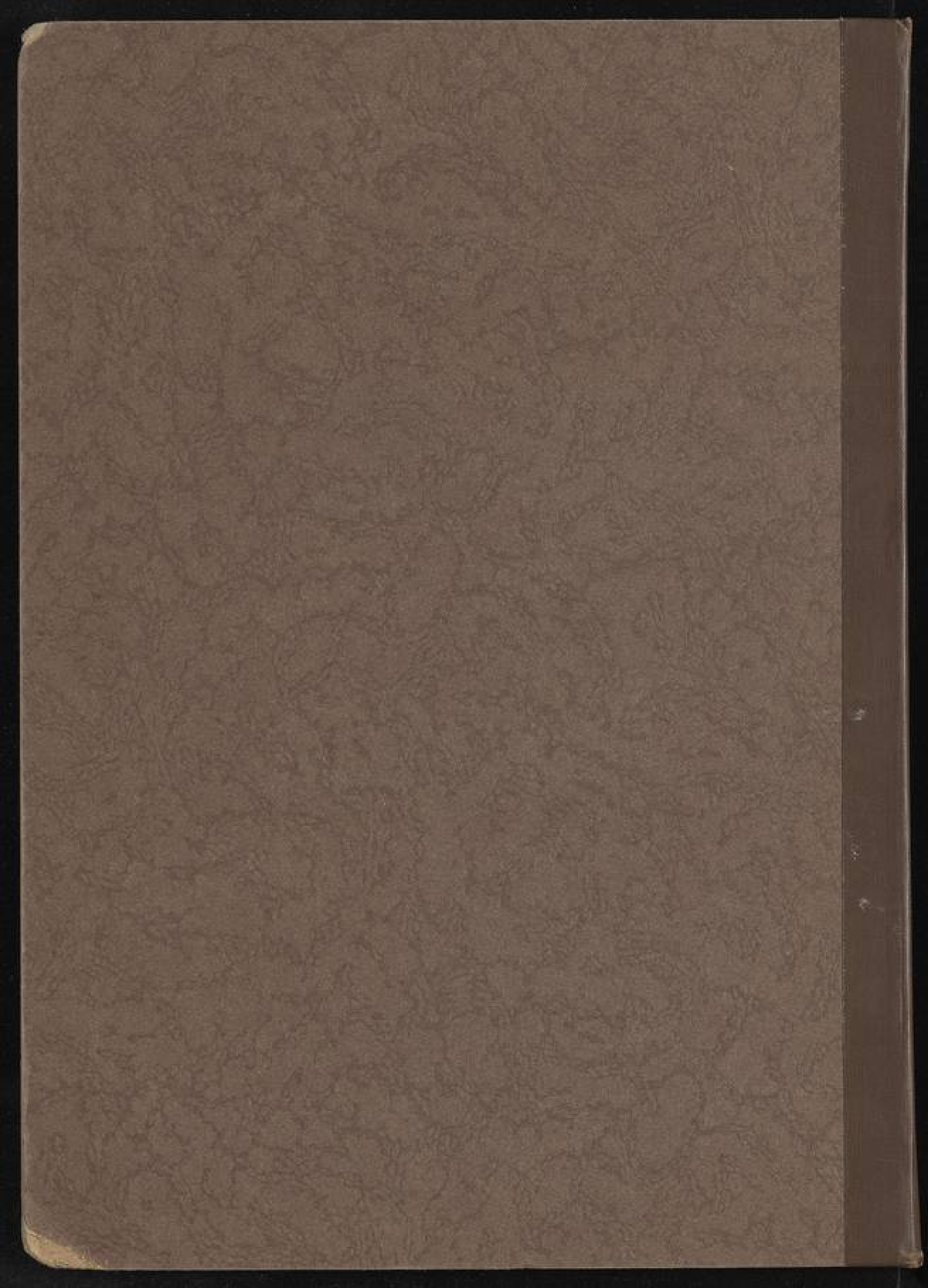
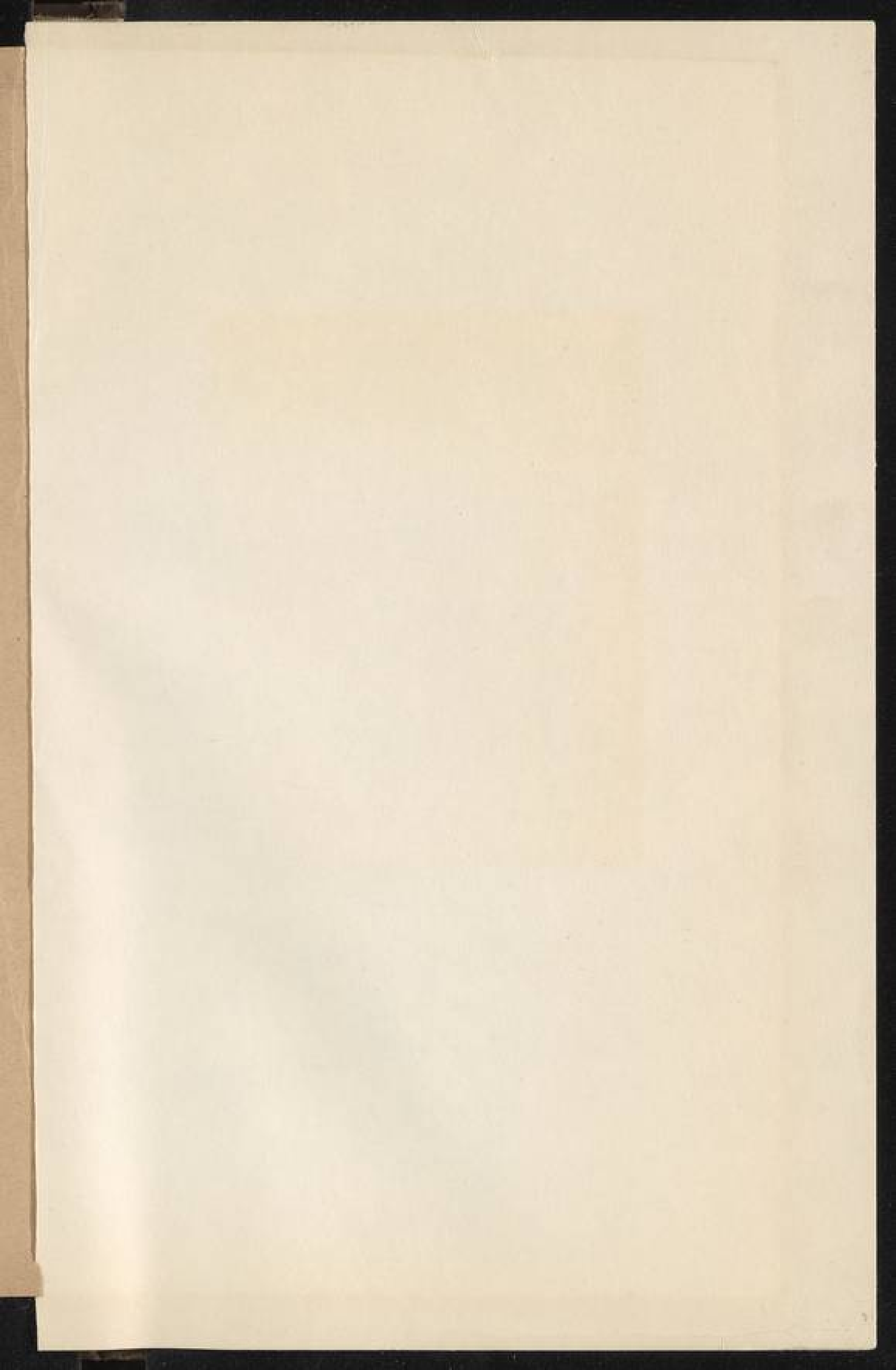



Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.







ميشيل لباد

مجاز في التاريخ
دبلوم في التربية
دبلوم عليا في الدراسات الاجتماعية

الاسماعيليون

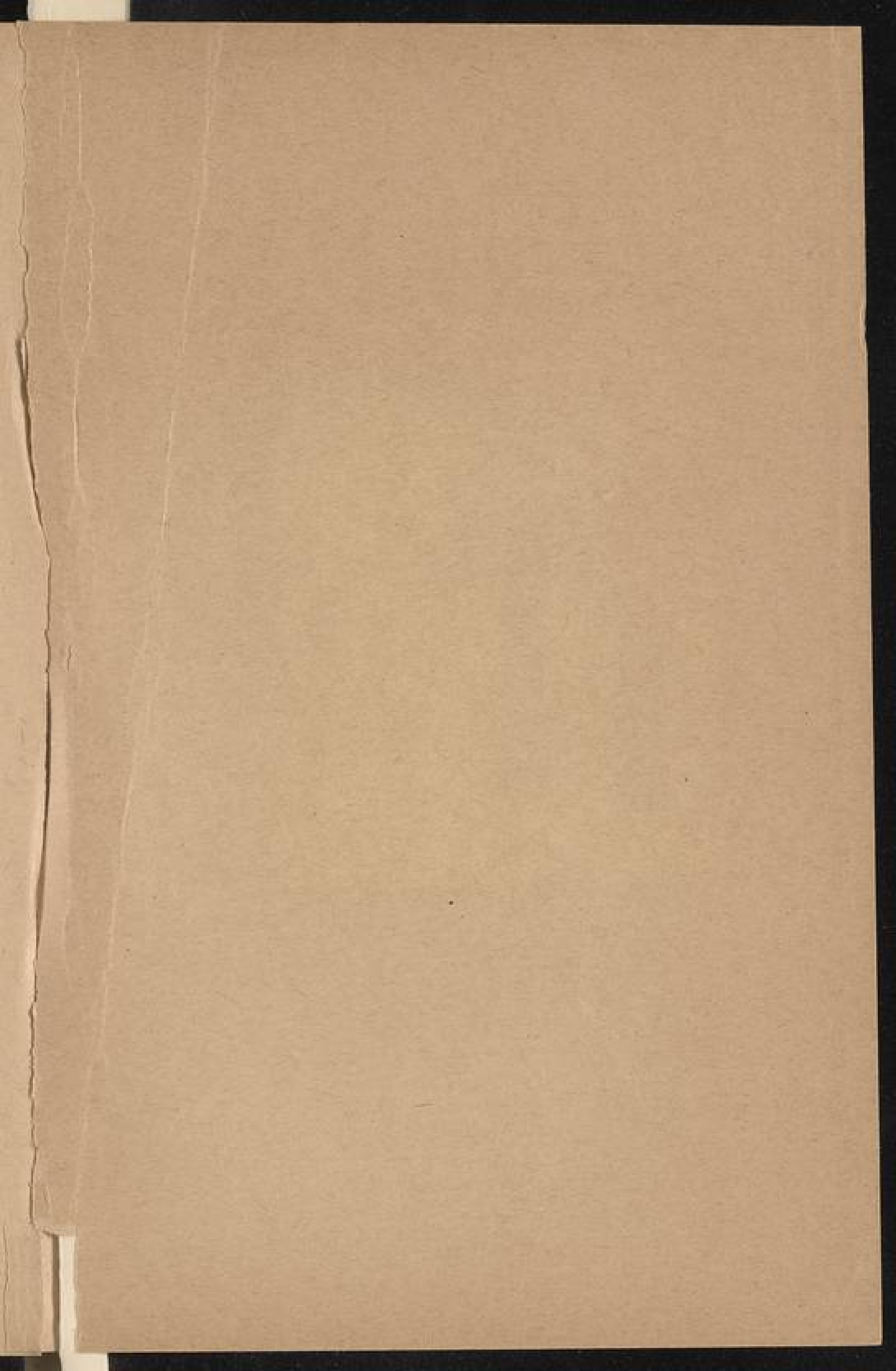
والدولة الاسماعيلية بمصياف

٥٢٥هـ ـ ٦٧٠هـ

الطبعة الاولى

مطبعة الاتحاد

١٩٦٢ - ١٣٨١



ميشيل لباد
مجاز في التاريخ
دبلوم في التربيه
دبلوم عليا في الدراسات الاجتماعية

الاسماعيليون

والدولة الاسماعيلية بمصياف

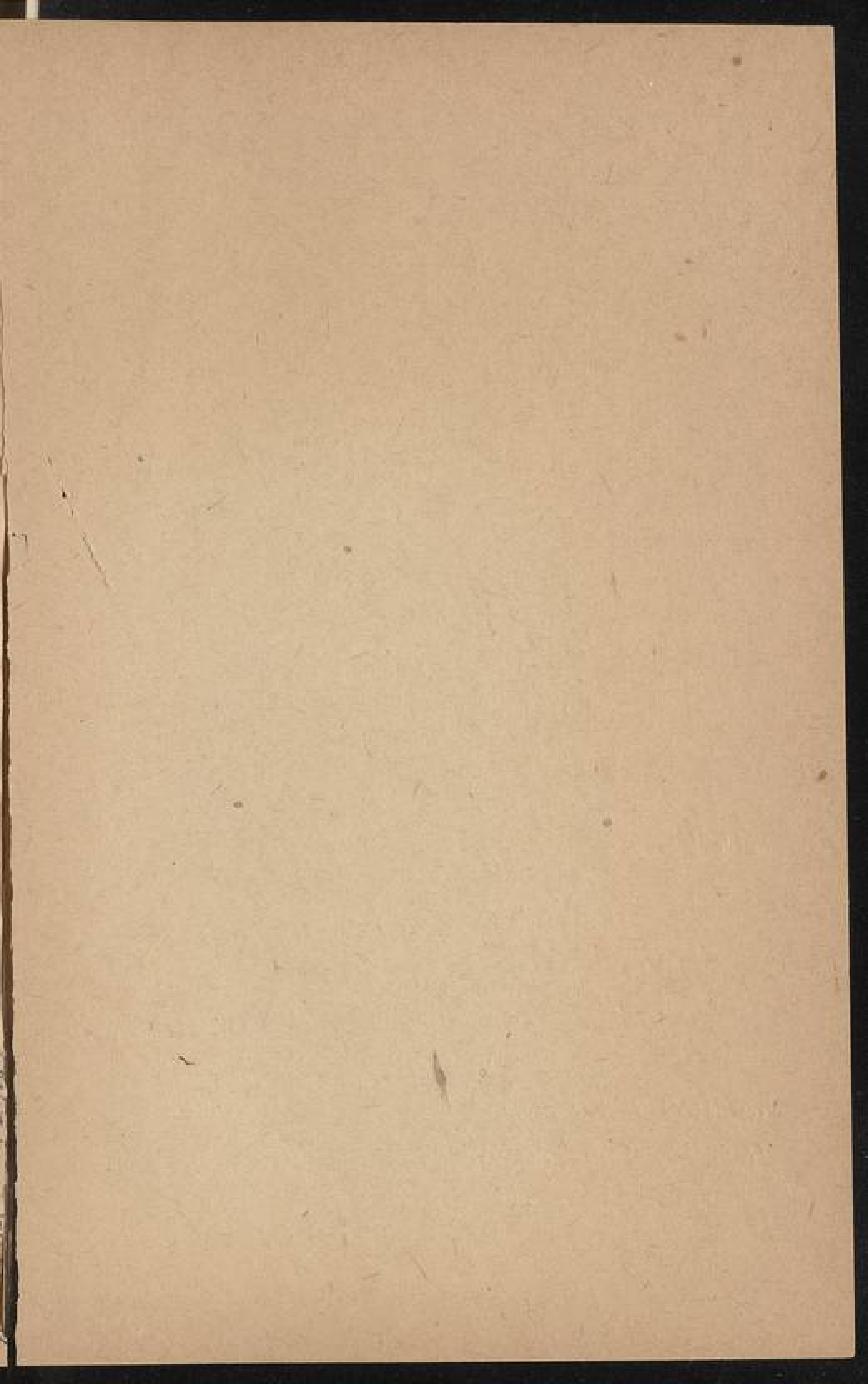
٥٣٥ هـ ـ ٦٧٠ هـ

الطبعة الاولى

مطبعة الاتحاد

١٩٦٢ - ١٣٨١

الفهرس



المقدمة

ليكاد يصدق علينا ، معشر الشرقيين ، اننا نقدس الموت أكثر من الحياة ، ونحترم الاموات أكثر من الاحياء ، حتى لكأن الحياة أسيرة المهات ، ومزرعة للآخرة ، تسير في ركابها طائعة متعبدة . ولعلّ ذلك مبعث الاعتقاد بأننا لم نخرج على التاريخ ولم نخرج به ، وبقينا عبيداً لقيوده ، يصنعنا ولانصنعه .

الحق أننا لانتنكر ، أن من أبرز خصائصنا ، التعلق بالماضي ، فهو مهوى الأفئدة ، ومبعث فخرنا واعتزازنا . وكلما أوغل الزمن اتلعنا الجياد صوب الماضي ، لندرسه ونبحثه ، وقد نغلو في ذلك فيطغى الماضي ، بكل ثقله ، على الحاضر ، وتسد قبور الاموات سبل الاحياء ، كما يفعل الصينيون . ووجه الخطر في ذلك ان نجعل من التاريخ وسادة نغفو عليها كما تغفو الشاة على سكين الجزار ، دون أن نجعل منه مرتكزاً للوثبة الخلاقة . واخطر منه أن تبقى عيوننا الى الوراء مسمرة وقلوبنا مصمتة ، ونغفل عن مواجهة الحاضر وما يضطرب فيه من مشاكل تستدعي الفكر السليم والحل الجريء .

ولا نعني بذلك ، الدعوة لدفن الماضي ، بغثه وسمينه ، بل نريد أن ننظر للحياة عبر الزمان والمكان ، بأبصارنا لا بأبصار الآخرين ، فلا يجب ان نحمل الماضي بكل أوزاره فنمسي قبوراً تسعى ، دوداً يدب ، إنما أحياء نبعث فينا من أرواح الأجداد قدراً يمكننا من متابعة النضال ومواصلة النجاح فتغدو ارواحهم دليلاً بصيراً لا عبئاً ثقيلا .

ومن مظاهر التقديس للماضي والماضين ، إقبالنا على التاريخ ، دراسة وبحثا وتأليفا . لا نختلف في ذلك ، عن اسلافنا هواة التاريخ والعبر وما يرتبط بذلك من شغف بالسياسة والسلطة . حتى قيل : العربي سياسي بالفطرة ، ويجب ان يقال : العربي « تاريخي فهو سياسي » . فلا غرو اذا شهدت الاكداس المكدسة ، من كتب التاريخ تغزو المكتبات ، من مطلع حضارتنا ، ذات الرواء ، حتى فجر نهضتنا .

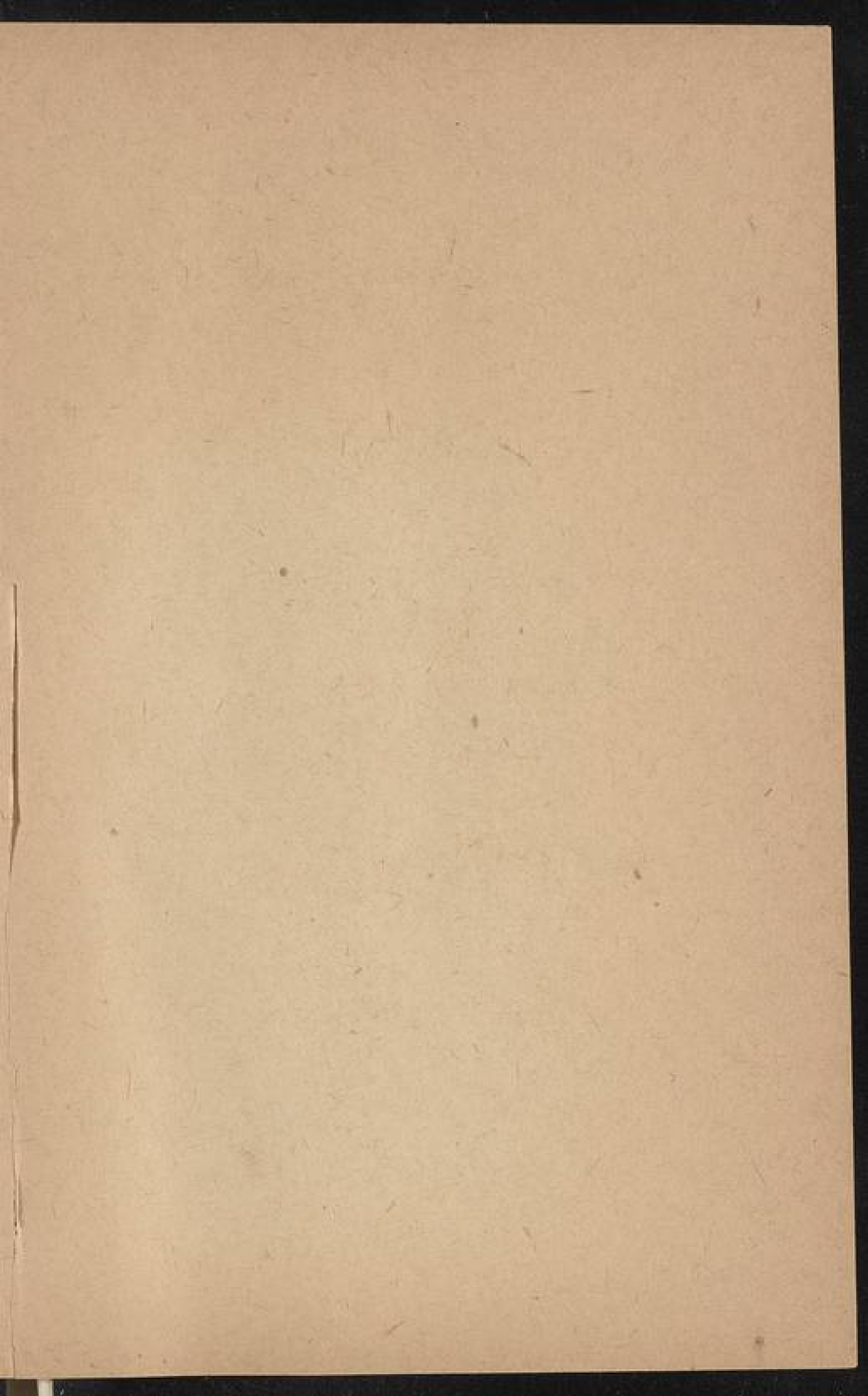
ولعله مما يدهشك ، كما ادهشني ، الا تجد بين آلاف المجلدات التاريخية ، على ما تحفل به من هيّن الأخبار ، شرقية كانت ام غربية ، الا النذر اليسير من الاخبار الشتيتة ، والاحكام المبتسرة الجائرة ، عن دولة مصياف الاسماعيلية وهنا تواجه الدارس عقبتان ، **الاولى** : خلع المسحة العضوية ، على الاخبار المبعثرة لبث الحياة والوحدة فيها ، **والثانية** : تمحيص الحق من الباطل وما اعسر ذلك ؟! وليست جدة الموضوع ، وندرة الاخبار ، واختلاف الآراء حول هذه الحركة والدولة بأقسى العقبات ، بل لعل أعصاها وأمرها ، محاولة فهم التاريخ الوسيط ، على شاكلة مغايرة لتاريخنا الحديث ، في بواعثه واهدافه فهو اسير اللاهوت ، وتاريخنا المعاصر تقوده المذاهب القومية والعقلية . ثم هل يأمن من كان مثلي ، سقطة العثار ؟ فيما هو يلامس المقدسات العميقة ! ولذا هل تلومه اذا اختار الوقوف عند اعتاب الهيكل لا يريم ؟!.

وما أغراني ، هو ما يغري الناس ، بارتياد المجهول . فكلنا نبحث عن الجدة ، ولو خسرنا ، كجدنا العتيق آدم ، نعيم الجنة ، تجذبني في ذلك ، وفوق ذلك ، ما في شيوخ الجبل (كسنان) من عبقرية عجيبة ، وكفاءة نادرة ، فرضت سلطانها على كتاب الغرب والشرق ، وما في دولة مصياف

من حيوية ونشاط وقوة وما تحفل به من علم اخوان الصفا ،وفقه الفاطميين وفلسفة اليونان والفرس والهندوس ، ولا ينالها ، مع ذلك شيء من اهتمام الدارسين لذا فكل ما نطمع فيه هو توجيه النظر الى قطعة من تاريخنا اسدت خيراً كثيراً للوطن، بجهادها ضد الغزو الصليبي ، وجهادها في ميدان الفكر والعلم والفلسفة ، مما تشهد به مكتباتها الحافلة بكنوز الاجداد الموزعة في مصياف والقدموس وغيرها .

لقد ظلت هذه الدويلة على صغرها ، طيلة عصور الانحطاط ، مرقداً من مراقد الفكر والابداع والشعر ، ومقراً اميناً لدراسة رسائل اخوان الصفا وشرحها ، ومهبط شعر مزيد الحلي وراشد الدين سنان ، ومبعث حركة ناشطة للدرس والتأليف والبحث . تخفى ذلك كله وراء سحنة القلاع الصارمة والحصون المتجهمة ، وبريق حراب الفدائية الرهيبة ، وسلطة شيوخ الجبل المهيبة .





الفصل الاول

الدعوة الاسماعيلية ومظاهرها

العقائدية والسياسية والثقافية

في القرن السابع للميلاد ، بسط الإسلام لواءه على بقاع واسعة من العالم فهوت في أحضان الفاتحين حضارات الأقدمين ، بما فيها من خصب وتنوع ، وما تحويه من عوامل الشيخوخة والهرم ، فدبت فيها أثر الفتوحات العربية حياة جديدة ، ومرى دم فتي جديد ، فبرزت على مسرح التاريخ حضارة عربية إسلامية واضحة القسمات ، جلية المعالم ، تسير فيها العروبة والإسلام جنباً الى جنب ، وتجتني معاً ثمار الجهاد الحضاري والسياسي وتحصد معاً أشواك العدوان والتحدي ، ينبع من الداخل أو ينقضُّ من الخارج .

وبينما كانت الأمة العربية تخط مصيرها في مجرى الزمن ، وترسم مسيرها على هدي العروبة والإسلام ، نبت في أحشائها عدد هائل من الفرق الدينية والفلسفية ، لعبت دوراً كبيراً في حضارتنا ، وتركت أثراً عميقاً في حياتنا وخلفت إرثاً جليلاً في مجال الفكر الحي ، والأدب الخالد .

وكانت الحضارة العربية ، دفقاً ثراً مثمراً ، رضـع الخصب والنماء من

روافد فياضة تحدرت إليها من تراث الماضي ، وروح الإسلام ، وروعة التفاعل بين هذين العاملين . ذلك التفاعل الذي تبلورت بنتيجة المذاهب والفرق المختلفة في تاريخنا ، حتى إذا مالت كفة القدر ، وحلت عصور الإنحطاط ، وذهبت السيادة العربيه ، إنحدرت الفرق إلى الجدل العقيم وإجترار الاحلام. لقد أطفأت النكبات السياسية والاجتماعية شعلة الفكر المبدع ، وأخمد الاضطهاد روح الخلق فانطوت الامجاد وصوحت ثمرات الحضارة العربية .

فما هو مركز الحركة الإسماعيلية بين الفرق والحركات ؟ وما هي ظروف نشأتها ؟.

أ ـ الحركة العقائدية

١ - قيمتها : كانت الدعوة الإسماعيلية أبعد الحركات التي ظهرت أثراً وأشدها إيغالاً في عالم الفكر والفلسفة ، وأكثرها عنفاً وتطرفاً في دنيا السياسة ، وأعمقها أثراً في تاريخ الحضارة العربية ، وأشدها حيوية ومقاومة وتحدٍ لقوى العالم المخالف لها . فقد بزغت على مقربة من عاصمة العباسيين وحاولت عبثاً إبتلاع الحضارة العباسية فتسلحت ضد الخلافة العباسية ، بسلاح العقيدة الجامعة العميقة ، وجهزت جيش الأنصار لتقيم على أنقاض الخلافة العباسيــة دولة إسماعيلية ، وإذ تعجز عن ذلك في بغداد تسري سريان الشعاع في أوصال العالم العربي ، وتقتطع من جسد الخلافة العباسية ، معظم بقاع الأمة العربية غربي العراق ، وتجعل من العرب في جزيرتهم ، ومغربهم وفي جنوب سورية قوام دولتها ، ولب حضارتها ، وحملة لواء دعوتهـا ، ثم

تتولى بالعرب الدفاع عن الأرض العربية ضد الغزوات الصليبية ، في الوقت الذي إنحدرت فيه خلافة بغداد إلى فوضى الصراع السياسي والخضوع للغزاة الأجانب ، تاركة عبء الدفاع عن بلاد العرب لسيوف المصريين والسوريين بقيادة الدولة الفاطمية . ولكن هذه الدولة ، يصيبها من الإنحلال في أواخر أيامها ومن الوهن والضعف مايجعلها عاجزة عن دفع الخصم العنيد ، فتفسح المجال لقوة الأيوبين الناشئة ، ولقوة دولة مصياف الإسماعيلية وريثة الدول الإسماعيلية ، في عقيدتها وسياستها ودفاعها عن أرض العرب .

ولم يقتصر أثر الحركة الإسماعيلية على خلق الدول . كالدولة الفاطمية والقرمطية بل تركت عقيدة جامعة : عميقة الجذور ، متطورة الفروع ، ثورية المنزع

وخلفت تراثاً فكرياً ومذهبياً وفلسفياً ضخماً ، عجزت عن مثله بقية الحركات . ومن ينسى في هذا المجال العمل الضخم الذي أنجزه « إخوان الصفا وخلان الوفا » ؟ ألم نصل بعد إلى إدراك قيمة هذه الحركة بين الحركات السياسية والدينية ؟!

إنه لمن العسير في هذه العجالة : إيفاء هذه الحركة حقها من البحث وبيان ما تركته من أثر في حضارتنا ، وحسبنا الإشارة دون الإبانة والتلميح دون التصريح ، ولكي نكون على بينة من الأمر يجب أن نرافق هذه الدعوة ، منذ نشوئها فنجتلي ظروفها التي نبعت منها ، ونواكب تطورها وهي تضم الأفكار وتصهر العقائد ، وتقيم الدول .

٢ - ظروفها : عندما إندفع العرب بالإسلام إلى أعماق العالم المتحضر

القديم إندحرت أمام قوة الدين الجديد وحيوته، المذاهب القديمة، وتراجعت أمام التحالف العربي الإسلامي الوثيق ، القوي السياسة ، في العراق وسورية وغيرها من البقاع ، وبقيت الحركات الدينية والمذاهب المقهورة خامدة خاملة تجاه التحالف العربي الإسلامي في عهد الأمويين، لتعود للنشاط والعمل عند إنفصام هذا التحالف في عهد العباسيين .

لقد ذكرنا سابقاً أن تاريخنا كله وليد التفاعل بين الإسلام والحضارات السابقة وما نتج عن هذا التفاعل من تيارات فكرية وحركات سياسية وثقافية . وتحت جناح الخلافة العباسية، وفي سواد العراق، في الكوفة مركز الدعوة العباسية والشيعية سابقاً ، ظهرت الحركة الإسماعيلية ، وإنتشرت في الأرجاء. وكانت دائمة الضم للمذاهب والعقائد، تتطور حسب الظروف والأحوال وتتخذ شتى المظاهر والأسماء ، وهي في حقيقة أمرها ، وليدة ظروفها ، وربية العقائد القديمة المندحرة ، وقد إنتعشت في عهد العباسيين ، ومدت برأسها إلى الأعلى، وساعدها على ذلك ضعف الخلافة العباسية وتقلص سلطانها وخيبة أمل الناس فيها لأنها لم تحقق السعادة المنشودة التي أملها أنصارها ، بالإضافه لتذمر العناصر غير العربية من سيادة العرب والإسلام ، وإنتشار الفلسفة اليونانية والشك ، إلى جانب الجهل والخرافات في أوساط الناس علاوة على التفسخ الإجتماعى والصراع الطبقي بين الفقراء وجماهير الفلاحين من جهة ، وكبار التجار والملاكين من جهة ثانية .

وقد كانت الكوفة البوتقة التي تجمعت فيها جميع الأسباب المذكورة ،

وموطن التشيع وملتقى الأفكار والنحل ، ومنبع كل حركة معادية شنت على الأمويين في دمشق والعباسيين في بغداد ، وهذا ما يفسر لنا ظهور الحركة الإسماعيلية ويبين دوافعها . ومع ذلك يصعب تحديد زمن ظهورها بالضبط ، وإن كانت نتيجة تضافر تيارات إجتماعية وفلسفية وإقتصادية معقدة ولقد رسمت هذه الحركة مثلها على ضوء واقع غريب متطرف يسوده الغلو والعنف ، ويغرقه البؤس والضياع والفوضى ، فلا غرو بعد ذلك إذا جاءت بأفكارها وعقائدها وحركاتها السياسية ، متطرفة عنيفة ، ثورية المنزع ، عميقة النظر ، فلسفية المنحى ، تجتذب إلى صفوفها صفوة المفكرين والفلاسفة كاخوان الصفا ، ويطلق من أجل ذلك على كل متفلسف بأنه إسماعيلي ، كما تقود جماهير البائسين والناقمين والمشردين ، في عالم متناقض مضطرب .

٣ ـ **أفكارها وتنظيماتها** : الإسماعيلية حركة متشعبة بدأت بتمازج عدة فرق من الغلاة ولم تتخذ شكلاً واحداً ، ولا إقتصرت على اسم معين ، فكانت دائمة الضم لفرق جديدة ، دائمة التجزؤ إلى فرق متناحرة ، وقد إستطاعت كما قال ـ لويس ـ أن توجه السخط الإجتماعي والديني في البلاد الإسلامية : باتخاذها حق العلويين الشرعي في الحكم ، وسيلة للدعاية السياسية وبمزجها الداخلي لمبادىء من جميع الأديان والفلسفات . مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني ، وباستغلالها التذمر الإجتماعي والإقتصادي وتنظيماتها الدقيقة كجزء أساسي من فعاليتها . [1]

---

(١) شاكو مصطفى : في التاريخ العباسي . ص ١٨٨ .

ولقد أطلق على الحركة الإسماعيلية أسماء مختلفة منها الباطنية ،التعليمية القرمطية، الحشيشية. وإن نسبت هذه الحركة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الإمام السابع فقد إختلفت الآراء حول شخصية منظم هذه الحركة، فيزعم بعض المستشرقين مثل برنارد لويس ، أن منظمها هو أبو الخطـاب ، خلافاً لرأي الإسماعيلين الذين يعتبرون أبا الخطاب زنديقاً مارقاً [1] .

لقد توفي الإمام إسماعيل قبل الإمام جعفر الصادق بعدة أعوام بعد أن التف حوله جماعة من الاتباع والمريدين ، وألفوا فرقة خاصة جديدة انشقت عن الفرقة الامامية ، في الامام السابع اسماعيل وكانت ترى أن الامـام جعفر الصادق قد نص بالإمامة الى اسماعيل ، ولا يجوز التراجع عن هذا القرار ، لأن النص لايعود القهقرى ، وأن الايصاء بالامامة لموسى الكاظم لم يكن الا ستراً على ولي الامر ؛ (محمد بن إسماعيل) [2] بعد وفاة والده .

ويتفق المؤرخون أن وفاة إسماعيل في حياة والده جعفر سببت اضطرباً عند الشيعة أجمعين مما أدى الى تضارب الآراء ، ونشوء الفرقة الاسماعيلية (السبعية) والامامية الاثني عشرية .

وينسب الدور الاكبر في تنظيم الدعوة لعبد الله بن ميمـــون القداح ذي الشخصية الغامضة ، الذي اتخذ السلمية في سورية مركزاً لنشر دعوته

---

(١) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية . ص ٨٧ وشاكر مصطفى ص : ١٨٩ .

(٢) مصطفى غالب ؛ تاريخ الدعوة ؛ ص ٥٦

في جميع الاقطار الاسلامية واعتمد على الحسين الاهوازي في بث الدعوة[1] واقتفى أولاده أثره من بعده ، حتى نجح أحد الاسماعيليين ، وهو المهدي ، في تأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب .

وهذا يخالف رأي المستشرق ايفانوف الذي ينفي أثر القداح في الدعوة الاسماعيلية ، ويرى أن أصل هذا الاعتقاد يعود لعجز الناس عن فهم التطور والعمل المجتمع للأجيال المتعاقبة كما يعود لرواية ابن رزام في القرن الرابع الهجري ، مناقضاً قول برنارد لويس الذي يرى أن ابن القداح تولى رئاسة الدعوة وتربية محمد بن اسماعيل بعد وفاة أبي الخطاب[2] .

وقد توسلت هذه الحركة بدعوتها الجديدة ، لنسف المجتمع من الجزور وبناء مجتمع جديد ، على ضوء مثلها وأفكارها ، واعتمدت على التنظيم الهائل لجحافل الدعاة لتحقيق انتشار الافكار والمباديء التي تنادي بها .

ولعل أروع ما في الحركة الاسماعيلية ، تنظيمها وأساليب دعايتها العجيبة التي تدل على إدراك عميق لنفسيات شعوب الشرق الأدنى وعلى فهم دقيق لمصادر التذمر عندهم . ولذا عنوا عناية كبيرة بترتيب دعاتهم على درجات يربطها نظام دقيق نادر المثال ، واختيارهم من أقوى الشخصيات ، وتزويدهم بارشادات تتفق وأحوال البيئة التي يتوجهون اليها ، وكان على رأس الدعوة حجة الامام ، والداعي الاكبر للدعوة ، وقد أسند منصب رئاسة الدعوة

---

(١) الدكتور شكري فيصل . مجلة العربي العدد ١٦ لعام ٩٦٠ ص ١٣٤

(٢) شاكر مصطفى ؛ في التاريخ العباسي ص ١٩٠

في عهد الفاطميين الى موظف كبير أطلق عليه « داعي الدعاة » ويساعده في نشر الدعوة إثنا عشر نقيباً وعدد من النواب يبثهم في جميـــع الأنحاء تمهيداً للانقلاب السياسي . ومن أهم أعمال داعي الدعاة أخذ العهد على المريدين والاشراف على محاضرات مجالس الدعوة المخصصة لتعليم الناشئة على أصول المذهب الاسماعيلي ، وتخريج الدعاة لنشر مباديء الدعوة ، وجمع الاموال التي يدفعها الاعوان ، وكان صلة الوصل بين الخليفة ودعاته في طول العالم الاسلامي وعرضه[1] .

ومهما تكن فرق الحركة الاسماعيلية من تنوع واختلاف ، فقد جمعتها مباديء عامة كما يقول الشهرستاني ويؤيده الديلمي والبغدادي وابن الجوزي في ذلك ، وفحواها « ان لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويل » .

ويري كثير من المستشرقين أن الغرض من ذلك هو استخدام الكتب المقدسة لجميع الاديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة . وفهم الباطن وتأويل العلم من إختصـاص الامام المعصوم وحده . فالشريعة إذاً هي معرفة الامام والاستنارة بعلمه البـاطن الذي يتلقاه من النبي مباشرة[2] .

ويظهر أن الاسماعيليين اكتفوا أول أمرهم بالقول بإمـــامة إسماعيل وابنه محمد ولكن نظرتهم تطورت فأصبحت شاملة ، يتضح فيها اطلاعهم على الاديان المختلفة ورغبتهم في جمع أنصارها تحت لوائهم ، فقسموا تاريخ البشرية

---

(١) حسن ابراهيم حسن ج ٣ ص ٢٦٣

(٢) شاكر مصطفى ج ٢ ص ١٩١

الى حلقات نبوة عددها تسع ، وكل نبي يخلفه أئمة وآخر حلقة نبوة ، هي دورة محمد بن إسماعيل وفيها أظهر لأول مرة علم الباطن[1] .

وقد تضمنت حلقات النبوة المشار اليها أنبياء المذاهب الأخرى في بلاد الاسلام ، لدمج أنصارها في حركتهم (كأنبياء اليهود والنصارى) .

وأئمة الدعوة ، كما يؤمن أنصارها ، لايكونون ظاهرين جميعاً بل يستتر قسم منهم حسب الظروف ، واذا كان الامام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين ليبشروا بدعوته .

ويرى المؤرخون المسلمون أن أصل هذه الافكار فارسي مزدكي خرمي بابكي ، وينفي ذلك بعض المستشرقين (ماسينيون ، إيفانوف) ويؤكد ماسينيون أن هذه الحركة تمثل يقظة الفكر الاسلامي على أثر اتصاله بالعلوم اليونانية . والواقع أننا نميل الى التأكيد ، مع معظم المؤرخين الى تأثرها بأفكار اليونان والفرس والفكر الاسلامي مع تمثل الظروف واستيحاء الواقع معاً .

ولنشر الدعوة وبث الافكار لجأ الدعاة لمخاطبة السامعين باللهجة المناسبة التي تختلف باختلاف المذهب والدين والمستوى الثقافي ، واتبعوا طريقة التنشيء المتدرج تبعاً لمبادىء نفسية فلسفية ، يصل الداعي بنهايتها للسيطرة على المدعو وجذبه الى الدعوة والعمل لها باخلاص منقطع النظير[2] .

---

(۱) شاكر مصطفى ج ۲ ص ۱۹۱

(۲) نفس المرجع ج ۲ ص ۱۹٤

ب ــ الحركة السياسية

ب ــ « في بلاد الشرق كانت الأحزاب السياسية تظهر دائماً في صورة فرق دينية »[1] إذ كانت الحركة السياسية جزءاً لا يتجزأ من الحركة العقائدية ، والجدير بالذكر ان الحركات السياسية قاطبة، في العصور الوسطى تذرعت بالدعوة الدينية لتأييد حقها في الحكم وكسب الانصار ولاسباغ صفه الشرعية على أهدافها . وكثيراً ما سخرت الدول المبادىء الدينية في ذلك العصر لخدمة أهدافها السياسية ، كما فعل الصليبيون وغيرهم على السواء.

وهذا ما يفسر إنحراف بعض الحركات عن مبادئها المثالية والدينية ، عندما تتسلم السلطة السياسية . وتسعى للمحافظة على حكمها باللجوء لمختلف الوسائل المنافية لدعوتها الأصلية ، وهذا يدعم الرأي القائل أن المثل تتغير عند إصطدامها بصخور الواقع . وعلى ذلك خاضت الحركة الإسماعيلية جهاداً نظرياً باسلا مكنها من النجاح في تأسيس عدد من الدول الهامة في تاريخنا ، دون أن تحيد عند مبدأ الغاية تبرر الواسطة ، في ظروف تحيا فيه الشعوب والدول على ما يشبه ذلك، دون أن يتورع الخصم عن إفناء خصمه وتدمير أخيه الإنسان الموجود والتضحية به في سبيل خلق إنسان موعود، وتمزيق المجتمع للوصول إلى مجتمع موهوم مزعوم .

وأهم ما تفرع عن الحركة الإسماعيلية من دول وحركات سياسية : الحركة القرمطية والخلافة الفاطمية، والدولة الإسماعيلية في فارس، والدولة الإسماعيلية في مصياف .

---

(١) دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٥٥ .

١ - الحركة القرمطية في سواد العراق والبحرين (٢٧٦ هـ ٣٦٧هـ)

كان من أثر تضييق الخلفاء العباسيين الخناق على الشيعة عامة ، أن عمد الإسماعيليون إلى الإختفاء ونشر دعوتهم طي الكتمان ، وفي بلاد بعيدة عن مركز الخلافة العباسية ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره العباسيون من حنق ونقمة ، حتى أن محمد بن اسماعيل فر إلى الري ومنها إلى دماوند ، حيث إستقر ببلدة سميت فيما بعد محمدآباد نسبة إليه وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأنصار إليهم (١) .

وقد اتخذ أئمة الإسماعيلية بلدة السلمية في سورية مركزاً لنشر الدعوة وكانوا يبعثون من هذه البلدة بالدعاة إلى كافة الأقطار الإسلامية ، وكانوا يعهدون في هذا الدور ، وهو دور الستر ، إلى نواب الأئمة ، بتنظيم الدعوة ونشرها .

ومن أبرز الدعاة في هذا الدور ، عبد الله بن ميمون القداح ، الذي بث أمهر الدعاة في البلاد الإسلامية ومهد بذلك لنشوء عدة دول إسماعيلية ، اقدمها الحركة القرمطية في سواد العراق ، تلك الحركة التي تزعمها حمدان قرمط وصهره عبدان ما بين (٢٧٦ - ٢٩٠ هـ) .

وليس من شأننا التعرض لدراسة هذه الحركة بالتفصيل ، وحسبنا الإشارة إلى مبلغ التطرف النظري والعملي الذي وصلت إليه هذه الحركة على يد حمدان قرمط ، ذلك التطرف الذي انتهى الى رفع جميع القيود وتحرير الناس من التبعات والمسؤوليات الاجتماعية المألوفة ، ومخالفة العقائد

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن (تاريخ الاسلام) ج ٣ ص ٣٢٢

والأفكار السائدة، وقد انقلبت الفلسفة على أيدي هؤلاء المؤسسين للجمعيات السرية الى احلام سياسية وكانت هذه الجماعات ترمي الى التغلب والوصول الى السلطة السياسيـة . وفي سبيل هذه الغاية لم تجد حرجاً من التذرع بجميع الوسائل (١) حتى إننا لنسمـع حمدان قرمط وهو يشرح مذهبه ، وكأننا نسمع فيلسوفاً أوروبياً اشتراكياً يبيح المحظورات ويدعو لمجتمع جديد قوامه المثل الجديدة . ان الحرمان دفعه لتخطي جميع القيم الاجتماعية .

وقد إتخذ حمدان قرمط من (كلوازي) على مقربة من بغداد مقراً له ليرقب أحوال بغداد وليبقى على صلة بالإسماعيليين في سورية وإيران، وانتشر مذهبه في سواد العراق ، بفضل الظروف السيئة والتخريب الشامل ، الذي تركته الحركة الزنجية، إنتشاراً واسعاً شمل فئات من العرب والسواديين على السواء . أما حمدان قرمط فلعله كان نبطياً من سواد الكوفة وكان يميل الى الزهد ويظهر أنه كان « أكاراً بقاراً » ويصفه الديلمي بأنه كان داهيه . ويعتقد « دوسامي » بأنه رجل طموح خصب القريحة أظهر حماساً عظيمـاً للدعوة . ويجب أن لايغرب عن بالنا أن الظروف كانت عوناً له وفي صالحه.

وكان لحمدان عدد كبير من الدعاة من بينهم ، عبدان رائـد الحركة القرمطية في سوار العراق وذكرويه الذي تولى نشر الدعوة في بادية الشام . وابو سعيد الجنابي الذي كان له الفضل الأكبر في تـأسيس دولة القرامطة في البحرين والاحساء .

وقد أظهر حمدان قرمط مقدرة فائقة في التنظيم ، فوضع على أتبـاعه

---

(١) دي بور . تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٥٦

سلسلة من الضرائب فرضها بالتدريج، وأخيراً إنتهى الى فرض نظام «الإلفة» الذي نراه أول مثل للاشتراكية في الإسلام (١) . وقد أسس حمدان لأتباعه «داراً للهجرة» وجعلها عاصمة لحركته ومركزاً لتطبيق اشتراكيته المتطرفة التي تقوم، كما يقول حمدان لصديقه حسين الأهوازي، «أمرت أن أروي هذه القرية وأغني أهلها وأن أضع بيدهم ثروة أسيادهم» أليست هذه ثورة طبقية لهدم الطبقة الاقطاعية بمعاول الفلاحين ؟.

لم يقف حمدان عند هذا الحد في محاربة المستغلين واثارة المستعبدين، بل تجاوزها الى الأمور الدينية فهاجم الأديان جميعاً، وقال لأصحابه «ان الجنة في هذه الدنيا» وأن الأنبياء أحيوا الزعامة على العامة واستعبدوهم بشرائعهم (٢) .

ومضى بعد ذلك حمدان في تنظيم دولته الاشتراكية على أسس عجيبة تماثل بعض الدول في عصرنا هذا، وتعتمد على ما يقدمه الفرد من جهد وعمل لنيل المركز اللائق به في الجماعة وأخذ حاجته من الدولة التي تشرف على تنظيم كل شيء، وتوزع الثروة بين الجميع «من كل جهده ولكل حاجته» .

ولكن هذا النظام لم يدم طويلاً بعد الانقسام الذي حصل بين مركز الدعوة في السلمية، وحمدان في سواد العراق، اذ يختفي حمدان تاركاً العراق ليرود ارضاً أبعد عن جيش الخلافة، وتزاحم الفرق، ويقتل عبدان (٣) .

(١) شاكر مصطفى، في التاريخ العباسي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) شاكر مصطفى، في التاريخ العباسي ج ٢ ص ٢٠١

(٣) من مقال الدكتور فيصل المشار اليه .

وتتلاشى دولتهم في السواد ، بعد أن توالت حملات العباسيين واشتد ضغطهم لتظهر في البحرين ، ومن هناك عادت الحركة القرمطية تهدد بغداد وتروع العباسيين طيلة عشرات من الأعوام .

وإذا كان حظ القرامطة من الشام والعراق هذه السنوات القليلة ، وهذا السلطان القلق فقد كان حظهم أقوى في الحركة التي قادها أبوسعيد الجنابي في البحرين والاحساء ، واليمن حيث استطاعوا اقامة مجتمع وتكوين دولة حافظت على وجودها على تتابع السنين في القرن الرابع الهجري(١) كما نازعوا القاهرة فترة طويلة من الزمن ، وانشبوا مخالب الفتك والقتل والتخريب في نواحي الشام الجنوبية ، واستباحوا بعض المقدسات الاسلامية ، ليعودوا في فترات أخرى للتقرب من الفواطم والاعتراف بهم ومناوأة الخلافة العباسية في بغداد(٢)

« فمن مبلغ أهل العراق رسالة   بأني نا المرهوب في البدو الحضر »

كما قال زعيم القرامطة . وصفوة القول إن القرامطة في دور الستر قد أقلقوا العباسيين ، واشعلوا الفتن في سواد العراق وبادية السماوة وفي أكثر أرجاء سورية وهزوا أسس الخلافة العباسية وهددوها بالسقوط فقال زعيمهم مهدداً أهل بغداد :

« فياويلهم من وقعة بعد وقعة   يساقون سوق الشاة للذبح والبقر »

٢ - الخلافة الفاطمية (٢٩٦ هـ - ٥٦٧ هـ)

نشأت الحركة الفاطمية في الشام نشوء الدولة الاموية والعباسية ، ونمت

---

(١) الدكتور فيصل نفس المقال

(٢) الدكتور حسن ابراهيم (تاريخ الاسلام السياسي) ج ٣ ص ٣٢٩

في مصر والمغرب وماتت هنـاك(١) ، وقد مهد لظهور هذه الدولة جيش الدعاة الذي توافد باستمرار من السلمية . التي لعبت مع الكوفة دوراً أكبر بكثير مما تبيحه حدودها ، وكانت كالقلب النابض تبعث بأمواج الدعاة الى الاطراف ، فتقوم الدول الاسماعيلية المتعددة وتبلـغ أوجها بظهور الدولة الفاطمية في القاهرة ، تلك الدولة التي تمكنت من توسيع رقعتها وبسط سلطانها على معظم أجزاء الوطن العـربي وأرغمت الخلافة العبـاسية على الانكماش في العراق وفارس .

وبينما كانت الخلافة العباسية تغرق في الفوضى وتنتقل من حضن فاتح الى حضـن فاتح وتسير في ركاب الاجانب من ديلم وترك ، وتنصـرف للمنازعات الفردية ، وتولي وجهها شطر المشرق ، كانت الخلافة الفاطمية في القاهرة تعيش في اليمن وسورية ومصر على تراث العرب ، وتعتمد على سيوفهم في الدفاع عن أرض الوطن ضد البيزنطيين ، طيلة عشرات الاعوام ثم ضد الصليبيين فيما بعد مما جعل بعض الشعراء يقول عن خليفة بغداد :

« عجبت لمدعي الآفاق ملكاً	وغـايته ببغداد الركود »
ومن مستخلف بالهون يرضى	يذاد عن الحياض ولا يذود
« وأعجب منهما سيف بمصـر	تقـام له بسنجار الحدود »

والجدير بالذكر أن الخلافة الفاطمية الاسماعيلية شجعت العلوم والفنون ونشرت على الربوع لواء الأمن والسلام والرخاء ، وخلفت آثاراً جليلة في الأدب والفن والعلم ، وخاضت نزاعاً سياسياً مرّاً مـع الامويين في المغرب

---

(١) كـرد علي الخطط ج ١ ص ٢٢٨

والعباسيين في المشرق ، كتب لها النصر أحياناً ، وكتب عليها الخزلان ، أحياناً أخرى . ولقد كان العداء بين بني أمية وبني هاشم قديماً باقي الأثر في الجاهلية والاسلام وقد تطور بعد الاسلام فتلبث بالصبغة الدينية والمذهبية. وإذ تراجع الامويون في نهاية الصراع وانسحبوا الى الاندلس ، فإن الهاشميين (من فاطميين وعباسيين) تقاسموا العالم الاسلامي قروناً كثيرة ، دون أن ينسى الامويون شن الهجمات البحرية والبرية على الجناح الغربي للدولة الفاطمية ، واقتطاع بعض أجزائها . أما نزاع أبناء العمومة في المشرق فقد كان أشد وطأة وأبعد أثراً ، لأن استيلاء الفاطميين على قلب العالم العربي من جهة ، واعتمادهم على الحق الشرعي والدعوة المنظمة من جهة أخرى ، دفع بالعباسيين لمناوأة الخلافة الفاطمية بمختلف الوسائل والدعايات المغرضة ، ومع ذلك ، فقد صادفت الدعوة الفاطمية النشطة نجاحاً باهراً توج باحتلال بغداد نفسها على يد البساسيري الفاطمي (٤٥٠ هـ) تشد أزره الجيوش العربية من البادية السورية وبلاد الشام ، ويؤيده المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الداعية الذكي الواسع النشاط والحيلة . وخطب للمستنصر الفاطمي في جوامع بغداد ، وأنشأ بعضهم يقول :

يابني العباسي صدّوا	ملك الارض معدُّ
ملككم كان معاراً	والعواري تستردُّ

على أن زعزعة الحالة المالية بمصر ، وعودة الشيرازي ، وقيام المنافسة بين العرب والاتراك ، في جيش البساسيري ، واعتماد العباسيين على السلاجقة ساعد على وأد الحركة الفاطمية في بغداد بعد عام واحد .

وبدأت الدولة الفاطمية بعد ذلك تهرم ، ويطبق عليها الخصوم من

الشرق والغرب والشمال ، بعد أن عجزت عن رد التحدي الغربي الصليبي ، لتفسح المجال لدولة فتية يؤسسها صـلاح الدين ، تاركة أعباء حمل الدعوة الاسماعيلية لدولة ألموت ، ودولة مصياف .

٢ ـ الدولة الاسماعيلية في شمال فارس (٤٨٣ هـ - ٦٥٤ هـ)

لقي المذهب الاسماعيلي انتشاراً واسعاً في القرن الثـالث للهجرة وقد ظهرت الدول الدول الاسماعيلية في معظم أرجاء الوطن العربي ، بما في ذلك الشام والجزيرة والمغرب ، وامتدت مساعي الدعاة حتى بلغت أقاصي بلاد المغرب ، وكانت مدارس الدعوة الاسماعيلية في القاهرة تبعث بالأعداد الوفيرة من الدعاة الى كل مكان ، وإلى إيران خاصة ، وكان لهم مركز هام بإيران يرأسه داعي الدعاة ، وكان الدعاة يتميزون بنشاط خارق ، وقدرة عجيبة على التنظيم .

وقد ظلت بلاد الشام والمشرق تتلقى فيضاً مستمراً من الدعاة تبعث بهم الخلافة الفـاطمية حتى وفاة الخليفة المستنصر (٤٨٧ هـ) إذ انقسمت الاسماعيلية الى فرقتين ، الفرقة الأولى ظلت على إخلاصهـا للولد الأكبر للخليفة المستنصر نزار ، وعرفت بالنزارية ، وتزعمها الحسن بن الصباح . وانتشر أتباعها في بلاد فارس والعراق والشام . أما الفرقة الثانية فانحازت للخليفة المستعلي أخي نزار وانتشرت في اليمن ومصر ثم في الهند حيث عرفت ب(البهرة) (١) .

وقد تفرعت دولة مصياف عن الحركة الصباحية ولذا نجد الحديث عن منظم هذه الحركة الجديدة من الضرورة بمكان .

---

(١) مصطفى غالب تاريخ الدعوة ، ص ١٨٢

ولد الحسن بن الصباح الحميرى مؤسس الحركة سنة ٤٣٢ هـ وتثقف في مدينة نيسابور مع الشاعر النابغ عمر الخيام، والوزير نظام الملك فتواثقت عرى الصداقة بين الثلاثة وتعاهدوا على اقتسام السعادة في مستقبل الايام. ثم جرفهم تيار الحياة ومضى كل منهم في سبيله، يسعى في مناكب الارض. وبلغ كل منهم ذروة النسر المحلق، وعرف الصرخة الدامية، وجر ذيل المجد ولكن نهاية كل فارس اختلفت بعد ذلك، ورفاق المدرسة اختلفوا على اقتسام السعادة فمزق الحسن قلب الوزير المتعجرف نظام الملك.

أما الحسن بن الصباح فقد عكف على دراسة العلوم الفلسفية والرياضيات ودرس المذهب الاسماعيلي على شيخ الجبل عبد الملك بن عطاش فاظهر نبوغاً كبيراً وتفوقاً عظيماً أدهش أساتذته ومربيه (١) فأوفد الى القاهرة بزي تاجر حوالي سنة (٤٨٠ هـ) وقد استقبل فيها بمنتهى الحفاوة وتلقاه داعي الدعاة (القزويني) وكبار رجال الدلة الفاطمية على الحدود ورحب به الخليفة المستنصر وأفرد له منزلاً خاصاً وجعل له مجلساً للدعوة مما يدل على أنه كان أحد أقطاب الدعوة المرموقين في إيران، وعلى صلة سابقة قوية بالخلافة الفاطمية بالقاهرة(٢)

لبث الحسن في مصر ثمانية عشر شهراً تعرف فيها على دقائق الدعوة وأساليبها ولكن هذا الرجل الطموح مالبث أن اصطدم بالوزير النافذ الكلمة بدر الجمال ودب الجفاء بسبب طموح الرجلين، ولما ثارت مسألة ولاية العهد واختار المستنصر ولده نزاراً أيده الحسن ورفض ذلك بدر وأيد

---

(١) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة ص١٩٠

(٢) شاكر مصطفى، ج ٢ ص ٤١٥

حفيده المستعلي ونشأ بسبب ذلك نزاع انقسمت فيه الدعوة الى نزارية شرقية وفاطمية غربية مستعلية .

وانتهى الخلاف باعتقال الحسن في دمياط فهرب منها في سفينة الى الشام حيث حلّ في حلب ثم في بغداد وأصبهان . وكان يبث دعوته على طول الطريق مستغلاً عدة عوامل : منها تنازع السلاجقة ، واصطراع العرب والفرس والترك ، وانقسام السكان بين الشيعة والسنة ، وتناحر الطبقات في مجتمع فارس الاقطاعي مع تسرب الفساد والتفسخ الى الحياة الاجتماعية ، كل ذلك قد أفاد منه الحسن بذكاء خارق ، واتجه في دعوته الى الطبقات المحرومة المضطهدة الجاهلة مبتعداً عن طبقة العلماء ، مخالفاً بذلك سنة الاسماعيلية في الاعتماد على العلماء واقتفى بعد ذلك أثر سلفة عبد الملك بن عطاش ، فاتجه بعنايته الى قلعة (ألموت) (١) واستطاع بعد أن بث دعوته بين ساكنيها ، أن يثب عليها ويخرج عامل السلاجقة (٤٨٣ هـ) منها وبدأت بذلك مرحلة جديدة في حياة الدعوة النزارية الاسماعيلية ، إذ صار لها مركز منيع وحصن حصين ، ومدرسة لتعليم الدعوة ونشر مبادئها في الشرق والغرب معاً .

ولم يتمكن نظام الملك ، ولا سادته السلاجقة ، من استرجاع هذه القلعة ، برغم الحصار العنيف ، ولا استطاعوا بما اقترفوه من جرائم بشعة ضد الاسماعيليين أن يرغموا سيد القلعة على تسليمها ، وكل ما نتج عن ذلك هو سقوط نظام الملك قتيلاً بيد فتى اسماعيلي بعث به الحسن ، وكان قتل نظام الملك أول

---

(١) الموت : قلعة في جنوب بحر قزوين بناها ملكشاه ، ومعناها : (عش العقاب) .

اغتيال سياسي هام قام به الإسماعيليون وكان مطلع عهد جديد في العمل السياسي يستند الى الارهاب السري مع القتال العلني ، والدعوة الفكرية .

وهذا يعني أن الحسن وضع خطة جديدة في الحياة الدولية ، وانحرف بذلك عن الدعوة الفاطمية ، ولكن هذا لا ينفي أن مقاومة دولة كبرى وخلافة واسعة الاطراف ، تشن الهجوم تلو الهجوم على حصون الدعوة ، وتسعى لإفناء الحركة الاسماعيلية يستلزم اللجوء لوسيلة رهيبة يستعاض فيها بالفئة القليلة عن الجيش الكبير ، وإذ لم يتمكن الحسن من تجنيد ذلك الجيش فقد لجأ لهذا السلاح المرعب الاوهو الحركة الفدائية النادرة المثال في الشجاعة والاخلاص .

وقد تمكن الحسن بواسطة دعاته من جهة ، وفدائيته من جهة اخرى ان يلقي الرعب في قلوب حكام العصر ، ويزرع الموت الزؤام من قلعة «ألموت» في جميع بلاد الخلافة العباسية ، وفي قلب من تسول له نفسه بالعدوان على الاسماعيليين . ومع أنه لم ينفصل عن القاهرة الا بعد وفاة المستنصر ، فقد نظم الدعوة منذ أحتل ألموت ومضى بعزيمة خارقة امتدت منه الى اتباعه الشجعان ففرض هيبته ونفوذه على عصره بحفنة من اشداء الرجال ، كانوا لمدة قريبة فلاحين وعبيداً مضطهدين .

وكان الحسن رجلا فذاً شهماً في كل شيء . يحسن السياسة ، ومن أكبر دهاة التاريخ في رسم الخطط وتنفيذ الافكار . بل يمكن أن يحسب الرجال الذين يوازون الحسن في التنظيم وبلوغ الغايات وتنفذ المثل على عدد الاصابع .

ولقد أسهم الحسن بنصيب كبير في تأليف الكتب المذهبية وتثقيف

جماعته على مبادئه الفلسفية ، دون أن يهمل حياته الخاصة ، التي اتصفت بالقداسة والطهارة ، والتقى ، حتى أنه أعدم أحد أولاده ، عندما بلغه أنه شرب الخمر مرأ ... الخ .

وكان نقي السيرة مستقيم الطوية لم يتورع عن اقامة الحد على ابنه الثاني وقتله بتهمة الاشتراك في قتل أحد الدعاة المخلصين . ومهما تكن آراء (الشهرستاني) (والغزالي) في الحسن بن الصباح فان (فون هامر) يؤكد أن الحسن تكشف عن خبرة واسعة في فهم الحياة البشرية ، وعلم أن الالحاد يقوّض الدول والعروش ، ولكنه لايساعد على بنائها ، ولذا اعتمد الحسن على التدين المطلق ، والتنظيم الدقيق ، ورتب أصحابه على سبع درجات : تبدأ بداعي الدعاة وهو الحسن نفسه ، وتنتهي بالمستجيبين وهم عامة من دخل في المذهب . وأبعد هذه الفئات أثراً جماعة الفدائيين ، التي لم تتورّع عن اغتيال خصوم الدعوة من المسلمين والصليبيين على السواء ، وتلقى الموت بعد ذلك بنفس راضية مطمئنة (١) .

ولقد أفادت الدعوة الاسماعيلية من الحسن بما قدمه من خدمات جلّ أن يحصى عددها طوال خمسة وثلاثين عاماً قضاها في التنظيم والجهاد ، ونشر الدعوة ، في فارس والعراق والشام .

وقد طال العمر بالحسن ، ورأى بعينه موت أهله وصحبه وكبار دعاته . وقد شابت القسوة طباعه في أيامه الأخيرة ، حتى قتل ولديه ، وربما كان سبب قتل الولدين خشية الحسن من دسائسهما ، وربما لم يجدهما أكفاء لخلافته في رئاسة الدعوة، لذا ترك الأمر للأصلح من دعاته (كما يرى

---

(١) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٤١٩ .

فون هامر) وإذا صح هذا الرأي وهو على الغالب صحيح ، لما نعرف من صرامة هذا الرجل في تطبيق مبادئه واخلاصه العميق لدعوته ، فيمكن أن نعتبر الحسن من أنقى رجال التاريخ سيرة .

وقد أدى موت الحسن الى نتائج خطيرة ، في تاريخ طائفته ، أهمها تألب الخصوم عليها في سورية والعراق وفارس ، واعتماد هذه الطائفة على الاغتيالات المتكررة ، للدفاع عن وجودها المهدد بالفناء. وانفصلت الحركة في سورية عن « ألموت » واستقلت بالعمل وبادرت للافادة من ظروف البلاد لاقامة دولة في مصياف .

أما خلفاء الحسن في ألموت فقد اتجهوا الى سياسة متعصبة ، شديدة أحياناً ، ومتذبذبة أحياناً أخرى ، وجعلوا همهم بناء القلاع والحصون ، واغتيال أمراء السلاجقة ، وخلفاء بني العباس على السواء ومع ذلك بقي الصراع بين خلافة بغداد ، ودولة القلاع في شمال فارس ، مدة تزيد على القرن تقطعت فيه الاعناق ، وتمزقت الصدور ، وتهدمت المدن والقلاع ، ولكن حبل الأجل قد امتد بالخصمين المتنازعين ، حتى برز من وراء الافق ، الفاتح البربري هولاكو ، الذي اكتسح قلاع الاسماعيليين ، وخلافة بغداد ، اكتساح العاصفة . وانتهت بذلك مرحلة حاسمة في تاريخ العرب .

نفوذ الاسماعيليين في سورية بين (١٥٠ - ٥٥٠ هـ) .

منذ الايام الأولى لظهور التشيع العلوي في العالم العربي ، عرفت بلاد الشام ، بعض مبادىء الدعوة ، على يد نفر من الصحابة ، كأبي ذر الغفاري الذي نشر الدعوة لعلي ، وروّج له قبل نشوب الخلاف بين علي ومعاوية . ويقول العاملي : إن ابا ذر لما اخرج من دمشق ، بأمر من معاوية ، أقام في

جبل عامل ، فتشيع له أهله الى اليوم . ومنذ ذلك اليوم ، كانت الشام تميل تارة للشيعة ، وتنقلب عليهم تارة أخرى ؛ حتى بلغ التشيع أوجه ، في عهد أمراء حلب الحمدانيين ؛ وخلفاء القاهرة الفاطميين ؛ وحافظوا على تفوقهم العددي حتى القرن السادس للهجرة ، اذ يقول الرحالة ، ابن جبير ، في القرن السادس « والشيعة في بلاد الشام اكثر من السنيين ، وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى ومنهم الاسماعيلية ، والنصيرية (١) .

أما الحركة الاسماعيلية المنشقة عن الحركة الشيعية فقد أصبح مركزها في السلمية في وسط الشام ، وقد جاء الاسماعيليون الى الشام ، أملاً بانتجاع بقعة بعيدة عن ضغط الخلافة العباسية في بغداد ومراقبتها وسعياً وراء حشد القوى الحانقة في الشام على النفوذ الاجنبي ، الذي تغلغل في بغداد على يد العباسيين ؛ ولعل الاسماعيليين اتجهو الى الشام بالذات ، لانتشار حركة التشيع فيها ، ولوجود العناصر العربية الناقمة على العباسيين .

وبعد أن استقر بهم المقام في السلمية ، كانت عيونهم على بغداد ، عاصمة الخلافة وعقولهم في المقاطعات النائية ، والأطراف القصية . ولذا شرع الدعاة ، ينثالون في رحاب العالم الاسلامي ، يبشرون بدعوة جديدة ، تناسب كل فرد ، وجماعة ، لأنها تستغرق الاديان والمذاهب جميعاً وتخاطب كل فئة ، بلسانها .

وفي هذه الرحلة ، تبدأ الاسماعيلية ، عهداً جديداً ، من التحدي الصارم ، للخلافة العباسية . وتشن عليها هجوماً محكم الاطراف ، قوامة عقيدة فلسفية جامعة ، ماضية العزيمة ، تسري لدى الفئات ، التي فشلت

---

(١) كرد علي . الخطط ج ١ ص ٢٦٣ .

في الوصول الى السعادة مريان النسغ الجديد ، في النبت الذابل . فتحملها على الثورة ، تلو الثورة ، وتقدم لها المثل الروحية ، والغذاء النفسي المحيي بعد موات الآمال . وتبعث في الجماهير المحرومة ، لهبا قدسيا ، تغذية المثل والافكار ، المنبثقة من مبادىء نفسية عميقة ، وتجارب واقعية قـاسية ، ودعوة جامعة بين نعيم الحياة ، وما وراء الحيـاة ، في عالم يموج بالفوضى والإختلال والضياع .

وظلت السلمية ، وفية لرسالتها ، تقف متحفزة لغزو بغداد ، بما تقدمه من فيض متصل من خيرة الدعاة ، وخطير المبـادىء . حتى انتفض سواد الكوفة ، حيث هدد فيه القـرامطة الاسماعيليون ، خلافة بغداد ، وهزّوا أركانها الواهية . فتنبه العباسيون الى مبعث الخطر في السلمية ، والسواد معاً فنشب النزاع الدامي عدة أعـوام ، أثخن فيه الاسماعيليون ، في جسم الخلافة العباسية . ولكن الظروف ساعدت هذه الخلافة على النجاح ، بعد الانشقاق ، الذي حصل بين السلميه والسواد ، ذلك الانشقاق الذي أودى بحياة حمدان قرمط من جهة ، والتخلي عن السلمية كمركز للدعوة من جهة أخرى . سيما وأن الاسماعيلية ، قد انتشرت في المغرب ، على يد أبي عبيد الله الشيعي ، ومنذ ذلك اليوم تبدأ الخلافة الفاطمية بالانقضاض ، على خلافة ، بغداد ، بعد أن خرجت من السلمية مهاجرة لتعود إليها قوية ، عزيزة ، تحمي العقيدة جيوش جرارة ، وغابات من الحراب المسنونة . فتبدأ مرحـلة جديدة من النفوذ الاسماعيلي في سورية الجنوبية خاصة ، والشام عامة ويمضي القرن الرابع ويتلوه القرن الخامس للهجرة ، وسورية تعيش مع مصر والحجاز واليمن ، تحت النفوذ الاسماعيلي الفاطمي . ثم تشهد المجازر والفوضى الداخلية

التي يزرعها السلاجقة الوافدون من الشرق ، والصليبيون الغزاة من الغرب وترى الى النفوذ الاسماعيلي ، في نهـاية القرن الخـامس ، وهو يتقلص والى ظل الدولة الفاطمية وهو ينسحب ، والى الشيخوخة وهي ترحف مسرعه نحو خلافة الفاطميين ، بعد أن تألبت على دولتهم قوى الغرب والشرق ، من سورية ، والمغرب ، والبحر معـاً . وتعاونت الدول المسيحية الغربية ، والاسلامية الشرقية ، على محو الخلافة الفاطمية المتداعية .

وعندما عجزت هذه الخلافة عن رد التحدي ، ودفع الغزو ، استسلمت الصلاح الدين ، ليتولى توحيد الصف ، واحكام خط القتال في الجبهة السورية المصرية ، ضد القوى الشرقية والغربية . وكانت الاسماعيلية قد انقسمت الى نزارية ، يتزعمها الحسن بن الصباح في سورية والعراق وفارس ، ومستعلية في مصر واليمن وقد بقيت العلاقات السائدة بين الطرفين على سابق عهدها من الود والصفاء ، ولم يحدث ما ينأى عن هذه القاعدة الا ما تسرب الى هذه العلاقات من وهن ، وضعف ، يتماشى مع انحلال القوى الخـلافة في مركز الخلافة الفاطمية ، يقابله نشاط ، وحيوية دافقة ، قصيرة الأجل ، تبعث من قلعـة « الموت » التي تولت ، بعد وفاة المستنصر (٤٨٩ هـ) نشر الدعوة وتوجية الدعاة ، وانتهاز الفرص السياسية ، لاستعادة مركز الخلافة الفاطمية وعزها الآفل . وبالرغم من جهود الحسن بن الصباح ، ودعاته في سورية ، بدأت الحركة السياسية الاسماعيلية ، تحتمي بالقلاع والحصون وتنعزل بالتدريج ؛ وتلجأ لمختلف وسائل الدفاع ، عن النفس ، المشروعة منها وغير المشروعة على السواء . فتقوي نفوذها في حلب ؛ ثم في دمشق والبقاع

ثم ترحل الى منطقة مصياف لتقيم آخر دولة لها في التاريخ .

كانت حلب ، من المراكز الهامة ، في تاريخ الحركة الاسماعيلية . فلم تخلُ منذ القرن الثاني للهجرة ، من دعاة ، يروجون للدعوة الاسماعيلية ، لاحلالها مكان خلافة بغداد . ومال الى الدعوة الفاطمية في عهد الخلافة خلق كثير في نواحي حلب ، بسرمين ، والجوز ، وجبل السماق ، وبني عليم ، وبزاعة ، والباب ، وأعزاز . كما انتشر المذهب الدرزي في هذه المنطقة انتشاراً واسعاً ، بيد أن الخلاف الذي نشأ في القاهرة حول الامام نزار ، وما نجم عن ذلك ، من انفصال الحسن بن الصباح ، في (الموت) وما بذله من نشاط خارق ، لبث دعوته في سورية ، والعراق ، وفارس . كل ذلك جعل الشام ترتبط هذه المرة بالمشرق ، وتتلقى سيل الدعاة ، والهاربين ، من الاضطهاد العباسي والسلجوقي معاً . كما تلقت ذلك منذ ثلاثة قرون ، ولكن الامر اختلف الآن ؛ اذ احتضنت الشام الدعوة ، وبلغتها، وأنشأت بها الدول منذ ثلاثة قرون أما الآن ، فقد أصبحت ملاذاً أخيراً ، تنتهي به الدعوة الاسماعيلية ، كنظام سياسي ، ودولة دنيوية صارمة .

تمكنت الدعوة الاسماعيلية في منطقة حلب ، وتكاثر أتباعها في أواخر القرن الخامس الهجري ، بفضل النشاط الملموس ، الذي بذله الحكيم المنجم (اسعد) لدى رضوان ، أمير حلب ، وكان رضوان يميل للاسماعيليين ، ويرغب في الافادة من جهودهم السياسية ، ودعاياتهم الواسعة ، وسلاحهم الرهيب .

ولعل رضوان ، كان يقدم المصلحة السياسية ، على كل مبدأ . وهذا ما يفسر لنا سر إعتماده على الاسماعيليين ، والدعوة للخلافة الفاطمية بالقاهرة

تارة ، ول (ألموت) تارة أخرى . ويستعين بالفرنجة مرة ، وبالعباسيين اكثر من مرة ، ويخطب للمستعلي من جهة ،ثم ينشيء داراً للدعوة النزارية في حلب من جهة ثانية .

ومهما يكن من أمر رضوان فمما لاشك فيه ان نجاح الدعوة في منطقة حلب يعود لرسوخ مبادىء الدعوة منذ زمن طويل ، ولتنازع الأمراء ، وضعف السلطة السلجوقية ، ودخول القوى الصليبية الى سورية .

ولم يلبث المنجم الحكيم اسعد طويلاً ، حتى فارق الحياة ، عاهداً بالدعوة الى رفيقه أبي طاهر الصائغ ، الذي تابع سياسة سلفه في التقرب من رضوان ، والافادة من عطفة ، وتشجيعه :

ومن الانصاف أن نذكر ، أن الاسماعيلين في منطقه حلب ، بذلوا المستحيل لرد الفرنجة الغزاة ، واخراجهم من قلاع منطقة حلب ،فجردوا حملة على افامية ٤٩٧ هـ ، وطردوا الصليبيين منها ، ولكنهم عادوا للخروج منها ، عندما توالت الحملات الصليبية ، من الشمال والجنوب .وصمموا على اغتيال أمير الصليبيين « دوسانجيل » في طرابلس ، فأردوه قتيلاً . كما فعلوا قبل ذلك بجناح الدولة ، خال رضوان ، بايعاز من رضوان ، ليمكن لنفسه ويتجنب خطر خاله ؛ بعد الذي كان من أخيه دقاق حاكم دمشق .

غير أن نفوذ الاسماعيليين في منطقة حلب ، وتسلطهم على رضوان ،أثار حفيظة الشيع الاخرى ، فأخذت تتحين الفرص ، للايقاع بهم . وقد سنحت هذه الفرصة سنة ٥٠٥ هـ ، عندما تعرض الاسماعيليون ،لقافلة فارسية سنية تابعة للسلاجقة ، خصوم الاسماعيليين . الذين امعنوا في التنكيل بأتباع الدعوة في فارس والعراق . فاستيقظت الاحقاد ، وامتدت الفتنة الى جميع

اتحاد منطقة حلب ، والباب ، وهوجم الاسماعيليون ، وقتل منهم الآلاف ، دون أن يوفر خصومهم طفلاً ، ولا كهلاً ، ولا إمرأة . (١) ولم يستطع رضوان ، أن يدفع عنهم غوائـل العدوان . ولكنه بقي على ممالأتهم ، واكرامهم حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ . فأخرجهم منها ابنه وقتل كبارهم.

وحاول الداعية ابراهيم ، بعد ما تعرضت له جماعته من خطر ، في هذه الفترة ، إيجاد ملجأ أمين . فهاجم شيزر ، واقتحمها ، ثم اضطر للتخلي عنها ، مما جعل خصوم الدعوة يشددون الضغط على اتباعها ، ويلاحقونهم بالأذى ، والعدوان ، حتى (٥١٧ هـ) ؛ حين أقبل ، بلك بن بهرام ، نحو حلب ، لمحاربة الصليبين ، وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها ، هي التخلص من الاسماعيليين ، ففارق الاحياء منهم ، منطقة حلب الى دمشق (٢) . وإذا كانت حلب دار الدعوة في هذا الوقت ، فدمشق موطن التنفيذ والعمل وقد اليها الهاربون من حلب والفارون من اضطهاد الخليفة العباسي وتنكيله .

ونتيجة لتلك النكبات ، التي ألمت بالاسماعيليين ، تفرق عدد منهم ، فانتشروا في المدن والقلاع الاسماعيلية ، الواقعة في المنطقة الغربية كالقدموس ومصياف ، والكهف ، والخوابي . وذهب فريق آخر ، بزعامة الداعي بهرام الذي أقبل من العراق ، وهو يحمل حقداً راعفاً على السلاجقة والعباسين ، كما يؤمن إيماناً عنيداً بضرورة تأسيس دولة ، تحرس الاسماعيلية ، واتباعها من خطر الموت ، الذي بدأ يجتاح أنصـار هذه الدعوة في كل بقعة من العالم الاسلامي .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ص ١٤٧ وابن الاثير .
(٢) ميشيل لباد « تاريخ قلعة مصياف » ص ٤ .

ولما شعر بضعف أمراء الشام ، وتشتتهم ، وانشغالهم بالفتن الداخلية ، وحروب الصليبيين . أيقن أن الفرصة سانحة ، فعمل على نشر دعوته بالسر ، فلما كثر أتباعه ، ومال اليه الوزير (طاهر بن سعد المزدقاني) عمد الى نشر دعوته علناً . واضطر علماء السنة في دمشق للسكوت خوفاً من بطش الفدائية . ولما استفحل أمرهم ، وعظم تسلطهم على دمشق ونواحيها، رأى حاكم دمشق ، طغتكين ، أن يسلمهم قلعة بانياس ، ليسلطهم على الإفرنج ويقطع تسلطهم على المسلمين(١) .

فلما سار بهرام الى بانياس ، اجتمع اليه أنصاره من النواحي المجاورة . فعظم أمره ، ودفعه طموحه منذ استيلائه على بانياس لاحتلال المنطقة المجاورة ، رغبة في تأمين امارة قوية تصون أتباعه ، وتمدهم بأسباب الحياة الكريمة . فأغار على جيرانه في وادي التيم ، وكان سكانه من الدروز ، والنصيرية ، والمجوس . فملك عدة حصون ، ثم قتل في إحدى المعارك . وتولى بعده في بانياس صديقه إسماعيل ، فأحكم أمره . وكان على صلة (بأبي الوفا) الاسماعيلي والوزير المزدقاني في دمشق ، يمدهم بالمشورة والرأي . ولما ازداد نفوذ أبي الوفا الاسماعيلي . « حتى صار الحكم له في دمشق » خاف صاحب دمشق ، فدبّر مؤامرة للتخلص منهم(٢) . وقتل منهم عشرة آلاف ، كما يقول ابن الجوزي . فما كان من إسماعيل ، أمير بانياس ، الا أن راسل الافرنج وسلمهم حصن بانياس ، خوفاً من هجوم تشنه دمشق ، فبقي ذلك الحصن بيد الافرنج ، حتى ٥٢٧هـ ، عندما استرجعته

---

(١) كرد علي الخطط ج ٢ ص ٣

(٢) مصطفى غالب ص ١٩٦

جيوش دمشق ، فغادره الاسماعيليون ، الى وطن جديد ، أمين ، مهد لهم فيه دعاتهم ، ألا وهو جبال البهرة المحيطة بمصياف(١) .

د ـ الحركة الثقـــافية

يرى العلامة ماسينيون ، أن الحركة الاسماعيلية ، تتميز من النـاحية الثقافية ، بأنها جعلت اللغة العربية ، مطاوعة لبعض إنتاج الأجانب الفكري ، وخـاصة الانتـاج الهيليني . ويعتقد أنهم كالمعتزلة ، يمثلون اليقظة الأولى للفكر الاسلامي ، على أثر اتصاله بالعلوم اليونانية .

وممـا يلفت النظر في الحركة الاسماعيلية ، شمولها المبادىء والنظم ، وقدرتها على الاستيعاب ، وصهر العقائد والعلوم ، في بوتقة واحدة . وتقديم الحلول العملية والنظرية ، للحياة البشرية ، بجدارة وإخلاص ، يسترعيان النظر ، ويستلزمـان التقدير والإجلال .

والواقع أن الحركة الاسماعيلية ، استخدمت في محـاربة خصومها العباسيين ، مختلف الوسائل . وقدمت للمجتمع ضروباً منوعة ، من الحلول النابعة من حاجات البيئة ، وإلحاحها المتمادي . فرسمت مثلاً دينية عقائدية ، وخلقت دولاً سياسية ، وأوجدت حركة ثقافية .

وتمثلت الحركة الاسماعيلية في منحاها الثقافي « بإخوان الصفا » وكانت هذه الطائفة ، كما يقول (براون) موضع عطف بني بويه في بغداد ، حول منتصف القرن الرابع ، ثم استطاعت أن تتمم ما بدأته المعتزلة ، من محاولة

(١) مشيل لباد تاريخ قلعة مصياف ص ٥

التوفيق ، بين الفلسفة اليونانية والدين الاسلامي ، وتوحيد الثقافة في دائرة معارف . وقد بلغت هذه الحركة أوج نشاطها عندما نضجت الحضـــارة العربية في الفكر ، وانحدرت الى الحضيض في السياسة .

وكان إخوان الصفا طائفة سرية إسماعيلية ، تتألف من طبقات متفاوتة وقد أخذوا كثيراً من مبادىء الفلسفة الطبيعية ، ولجأوا الى تأويل القرآن تأويلا مجازياً (١) وتتألف دائرة المعارف التي ألفها إخوان الصفـــا ، من إحدى وخمسين رســالة . صنفوا فيها العلوم ، وردوا كل شيء الى النفس ، وما لها من قوى . وجملة القول في آرائهم ، أنها مذهب جمـاعة مضطهدة ، تبدو النزعـات السياسية في جميع أجزائها ، ونرى من خلال الرسائل ، ما استهدف له أصحابها من عنت وآلام ، وما قاموا به من كفـاح ، وما تعرضوا له هم وأسلافهم ، من ظلم . كما نتبين ، ما كان يختلج في نفوسهم من أمل ، وما تواصو به من الصبر . وهم يلتمسون في هذه الفلسفة الروحية ، سلوى لنفوسهم وتطهيراً لها . وهذه الفلسفة هي دينهم . وشعارهم الاخلاص ، والتفاني حتى الموت ، في سبيل إصلاح الاخوان لذا أوجبوا على الانسان مساعدة أخيه في هذه الحياة ، بماله وعلمه (٢) .

وقد أرادوا جمع حكمة الامم والديانات قاطبة ، وقدسوا جميع الانبياء والفلاسفة ، وأكدوا أن ظاهر الشريعة يصلح العامة فهو دواء النفوس المريضة الضعيفة أما النفوس القـــوية فغذاؤها الحكمة الفلسفية (٣) ومع أن بعض

---

(١) دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٨ وما بعدها

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، دي بور ، الطبعة الرابعة ص ١٥٩ - ١٦٠

(٣) نفس المرجع ص ١٦٢ ، ورسائل اخوان الصفا الرسالة ٤٢

المتأثرين بفلسفة أرسطو ، عابوا عليهم مبادئهم الفلسفية ، كما فعل بعض الفقهاء السنيين . فإن الفلسفة اليونانية استطاعت أن تستقر في الشرق ، بفضل هذه الطائفة ، وتأثرت بأفكارهم طوائف الاسماعيليين المتنوعة ، تأثراً كبيراً .

وقد عمل في تأليف هذه الرسائل ، كبـار علماء العصر ، كالبستي ، والزنجاني ، والعوفي ، وزيد بن رفاعة ، وابن سينا ، الذي انتهت بموته كما يقول أحد العلماء ، حركة الفلسفه في المشرق(١) . وبذا يمكن القول أن الحركة الاسماعيليه : جمعت نضال السيف الى كفاح القلم ؛ وجهاد الروح الى جهاد الجسد ، في معركة الحياة والمصير .

(١) الدكتور حسن ابراهيم ، ج ٢ ص ٥٦٠

الفصل الثاني

الدولة الاسماعيلية في مصياف

(٥٣٥ﻫ ـ ٦٧٠ﻫ)

أ ـ جبال البهرة مسرح الحوادث :

احتلت دولة الاسماعيليين في مصياف ، القسم الجنوبي من جبال العلويين المعروف بجبل البهرة (١) ، الواقع بين المتوسط غرباً ، وتخوم حمص وحماه شرقاً . وتاريخ هذه المنطقة يعكس بصورة واضحة ، أثر الموقع الجغرافي في الحوادث التاريخية ، ويبين مدى العلاقة الوشيجة ، بين الظروف الجغرافية والمظاهر السياسية . تلك العلاقة التي ، لم تنفصم عبر العصور . وتتألف كتلة جبال البهرة المحيطة بمصياف ، من مرتفعات شديدة الانحدار ، وأوديةوعرة المسالك ، ودروب متشعبة ضيقة ، تتشابك في سفوحها الاشجار وتتعانق في اعاليها القمم . فتؤلف بذلك منطقة حصينة ، تغري الهاربين من الاضطهاد الديني والسياسي ، من أصحاب العقائد والثائرين ، الذي اختلفوا مع ابناء بيئتهم ، باللجوء اليها تعشقاً للحرية والأمن .

(١) حملت جبال العلويين هذا الاسم ، من قبائل البهراء اليمنية ، التي استوطنتها بعد الفتوحات الاسلاميه .

وهذا الوضع الطبيعي الممتاز ، فضلاً عن موقعها، بين الساحل والداخل في بقعة منعزلة عن طريق المواصلات الهامة ، جعلها قبلة انظار الفارين ، والمتمردين ، وأصحاب الدعوات المتطرفة . ولهذه الاسباب جميعاً وفد اليها الاسماعيليون ، وتحصنوا فيها، ونزح اليها العلويون فقامت فيها الحصون ، ونهضت القلاع ، وانبثت في سفوحها القرى . وتلال هذه المنطقة لا تزال تتوجها الخرائب القديمة المهيبة ، وقد كانت فيما مضى حصوناً ومعاقل يفيء اليها طلاّب الأمن والحرية .

ومن المؤكد ، أن أهميـة هذه المنطقة ، كما يقول دوسو ، تعود الى مناعتها الطبيعية اكثر مما تعود لقلاعها وهذه العوامل جملة ، ساعدت على قيام الدولة الاسماعيلية وازدهارها ، ومكنت الاسماعيليين من مصارعة اقوى الدول المعاصرة وفرض هيبتها عليها ، وجنبت ريفها الوادع المعارك المدمرة ، التي اجتاحت منطقة الشرق الاوسط ، خلال قرنين من الزمان ، وعصفت بكل المنجزات الحضارية . كل ذلك بنتيجة سعي الاسماعيليين لجعل وضعهم الجغرافي ، شجى في حلوق الصليبيين ، ومصدراً لايذائهم والتعرض لهم ، وحاجزاً عتيّاً لخنق اطماعهم التوسعية . وبذلك أتيح لهذه المنطقة عزّ الاستقلال ونعيم الأمن، خلافاً لجميع المناطق الساحلية في سورية.

ب ـ لمحة تاريخية :

لم يتميز تاريخ جبل البهرة عن تاريخ بلاد الشام ، في جميع العصور التاريخية، الا في عهد الدولة الاسماعيلية . وكانت هذه المنطقة تابعة لجند حمص، منذ الفتح الاسلامي الاول وظلت تسير في ركاب الحوادث والاحداث ، لا تخرج عن خطة المناطق الأخرى ، التي أصبحت نهباً موزعاً للأمراء

الحلبيين ، بعد انحلال الدولة العربية وسقوطها . فتخضع فترة من الزمن للطولونين ، ثم للاخشيديين . واذ يدخل الحمدانيون أفق التاريخ من الشمال تصبح منطقة مصياف ، وجبال البهرة جزءاً لا يتجزأ ، من دولتهم العلوية ، التي أخذت على عاتقها ، مهمة الدفاع عن بلاد العرب ضد البيزنطيين بيدأن هذا العهد القصير الذي دام ربع قرن ، مالبث ان انصرم ، بوفاة الامير العظيم ، سيف الدولة الحمداني سنة ٣٥٧ هـ ، وتعرضت الجبهة العربية ، التي مزقتها المنازعات الفردية ، والمنافسات العرقية والدينية ، لهجومات البيزنطيين المتلاحقة ، على طول الساحل السوري والحدود الشماليه .

وقد عجز سعد الدولة بن سيف الدولة ، عن دفع البيزنطيين ،لانتعاشهم بوصول نقفور فوكاس الى الحكم . مما اضطره لعقد معاهدة مشينة ، مع نقفور سنة ٣٥٩ هـ أصبح بنتيجتها جزء كبير من أمارة حلب ، ومنطقة جبال العلويين ،خاضعاً للنفوذ البيزنطي وبذلك صار للروم حدود مشتركة مع الدولة الفاطمية الفتية في سورية الوسطى ،وعندئذ بدأ النزاع بين الدولتين واستمر نحواً من ربع قرن ، تراجعت في نهايته ، القوى البيزنطية المعتدية ، بعد معارك دامية التحم فيها الفاطميون بالبيزنطين في عهد المعز الفاطمي . وتعاونت القوى السورية والمصرية ، تحت القيادة الفاطمية ،فأرغم البيزنطيون على التقهقر حتى آسيا الصغرى سنة ٣٨١ هـ ، بعد أن حكموا منطقة العلويين خمساً وعشرين سنة ، غرقت فيها سورية الوسطى في التخريب والفوضى . وبرغم ذلك عاشت منطقة مصياف وجبال البهرة ، بعيدة عن ساحات القتال والمعارك ، بفضل موقعها الحصين ، وعزلتها الطبيعية ، خلافاً لما حدث لحمص وحماه وشيزر .

وأدركت الدولة الفاطمية واجبها تجاه الشام ، فشرعت تبعث بالجند لحمايتها والذود عن تخومها (١) وأخذت تفخر بجهادها عن العالم العربي ضد خصومه بينما تقف خلافة العباسيين في بغداد ، قعيدة ، مشلولة ، لا تبدي حركة ولا تبذل مسعى .

على ان الخلافة الفاطمية التي شملت سورية بما فيها جبال البهرة ، لم تستقر طويلاً في الشمال اذ لم يكد ينصرم عهد الحمدانيين في مطلع القرن الخامس الهجري ، حتى تغلب على المنطقة الواقعة ، بين دمشق والموصل ، أمراء الجماعات البدوية ، كبني عقيل ، وبني مرداس ، وكان المرداسيون في حلب خاضعين للفاطميين في مصر ، والعقيليون في الموصل تابعين لبغداد .

ومضى القرن الرابع ، والنصف الاول في القرن الخامس الهجري ، وبلاد الشام على عهدها من الفوضى والخصومات ، حتى حكم دمشق في هذه الفترة حمّال تراب اسمه قسّام !! وحكم بلدة صور فلاّح يدعى علاقة ، وتسرب الوهن لحكومة الفاطميين في القاهرة ، لكثرة المؤمرات والمنازعات ، وسوء المواسم بسبب الجفاف ، وانحراف اهل الشام عن الدعوة الاسماعيلية (٢)

ومع ذلك ، بقيت الخلافة الفاطمية في العالم العربي ، تقود حركة التحدي الاسماعيلي بنجاح كبير ، وتوجه كل قواها ، لحسق الخلافة العباسية المريضة ، بعد ان امعنت فيها عوامل الانحلال وانجلت حركة المد الاسماعيلي ، من الحدود الغربية لخلافة بني العباس ، عن سقوط بغداد بيد البساسيري ،

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣١

(٢) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٣٩٣ ، ٣٩٦

والامير العربي ابن صدقة ، والمناداة على منابر بغداد لخليفة الاسماعيليين بالقاهرة ، وبدا لفترة لاتزيد على السنة ، كأن الخلافة العباسية قد انتهت ، وكأن خلافة الفواطم قد حلت محلها في بغداد .

وفي هذه الغمرة ، اطلت من الشرق ، جحافل السلاجقة كقوة فتية جديدة ، تمثل تحدياً عنيفاً للاسماعيليين ، ورداً سنياً نشطاً ، أقال خلافة بني العباس من عثرتها (١) .

وكان ظهور السلاجقة في افق الحياة الدولية ، نذيراً بتقلص نفوذ الفاطميين ، الذين تعرضوا للضغط المستمر من جميع الجهات . وتألب عليهم اعداؤهم من الداخل والخارج ، من الغرب البيزنطي ، والشرق السلجوقي ، وخيمت قبائل الترك في قلب العالم الاسلامي ، بعد سقوط بغداد بيد السلاجقة ٤٤٧ هـ ، واندفاع امرائهم نحو الغرب ، يجربون الشام ، وآسيا الصغرى ، ويجربون حظهم في النهب والسلب ، في منطقة عريقة بالحضارة ، كما يقول بارتولد .

ولم تقف قبائل الترك البربرية عن الزحف المتوالي ، حتى قوضت حكم الفاطميين في الشام ، بين (٤٦٣ - ٤٦٧ هـ) ، ولاحقتهم حتى حدود مصر ، فانكفأت ، تلك الجماعات المتبدية بعد ذلك تفترس بعضها بعضاً ، وتنشب مخالبها الدموية ، في ضحيتها الهالكة ، فتعاني بلاد الشام ، فترة من القحط والغلاء والجوع تفوق حد الوصف «حتى تصيد الناس بعضهم في الطرقات ، وأكلوا السنانير والكلاب » (٢) .

(١) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٣٨٩

(٢) كرد علي خطط الشام .

وارسل ملكشاه سنة (٤٧٦ هـ) التركمان الى الحجاز ، واليمن ، فلم يتركوا فاحشة الا ارتكبوها ، كما يقول ابن الاثير . وهكذا تقصلت ظلال الخلافة الفاطمية عن سورية الداخلية ، والجزيرة العربية وقسمت على أمراء السلاجقة الاقطاعيين ، مما حال دون وحدة الصف عند مجيء الغزو الصليبي . وغدت منطقة جبل البهرة بذلك جزءاً من امارة حلب السلجوقية ، تؤدي لها فروض الطاعة ، وجانب الجزية ، وتتلمس العيش الهادىء ، في ظل امرائها العرب (بني منقذ) حكام شيزر وتشتري بالمال والطاعة الاسمية لحلب ، أمنها وسلامتها وحريتها أيضاً . ويمكن ان نعتبر من عهد بني منقذ ، بداية لدولة مصياف المستقلة ، التي نشأت على يد بقية باقية من ارث دول الاسماعيليين التليدة .

حـ - دولة الاسماعيليين المستقلة في مصياف (٥٣٥ هـ - ٦٧٠ هـ) (١١٤١ م - ١٢٧٣)

١ - عهد بني منقذ : تفيد الاخبار التاريخية ، أن بني منقذ ، بدأوا يثبتون أقدامهم في قلعة شيزر ، منذ عام ٤٧٤ هـ واحتلوا اللاذقية ، و كفر طاب ، نحواً من (٤٨٠ هـ)(١) وربما أخضعوا مصياف بعد ذلك أيضاً وما كادوا يستقرون في أمارتهم الناشئة ، حتى دهمتهم الغزوات الصليبية (٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م)فلجأ أمير شيزر لإرضائهم بالمال والمفاوضة ،فتحولوا الى طريق وادي الساروت المؤدي الى مصياف ، وعندما بلغوا أسوار القلعة خرج أميرها العربي، فوقع معهم اتفاقاً وصرفهم نحو بعرين (الرفنية) (٢)،

---

(١) كرد علي ص ٢٦٥ وما بعدها

(٢) RuncimaN : HistorYof Crusades

ليجنب بلدته ذلّ الغزو الغاشم ، فتوجهت جموعهم تكتسح في طريقها نحو (الرفنية) وطرابلس كل شيء ، ثم تقف عاجزة أمام صمود ابن عمار وهجمات الاسطول الفاطمي أربعة أعوام كاملة تدخل بعدها طرابلس ، وتجعلها قاعدة لجيشها وأسطولها في الاعمال التوسعية ، ومن طرابلس شنت غزوات متلاحقة على سفوح جبل البهرة الشرقية والغربية ، سقطت بنتيجتها قلعة الاكراد ، وامتدت آثارها حتى شملت البقاع والرفنية ٥٠٣ هـ . وشعر أمراء المنطقة بالخطر ، فقرروا موادعة الفرنجة ، واتفق صاحب حمص مع الفرنجة على أن يسلمهم حصن عكار ومنطقة البقيعة ، ويدفع لهم مبلغاً من المال مقابل استقلال مصياف ، والكهف ، وحصن الطوفان (١) . وبذلك دخلت مصياف تحت نفوذ الصليبيين مع ارتباطها بأمرة صاحب حمص حتى انتزعها الاسماعيليون سنة ٥٣٥ هـ من بني منقذ فدخلت في عهد جديد .

٢ - الوطن الجديد : جبال البهرة هادئة في مطالع القرن السادس لهجرة الرسول . كل شيء على مايرام . فنسمات البحر تهب رخية بليلة ، والسواقي تغرغر بألف أغنية ، والدروب الذاهبة الى القمر تستقبل الفلاحين في غدوة ورواح كالمعتاد ، وهذه الجنة الصغيرة تمرّ بها الليالي وتكر الايام ، وهي تنعم بحياة من السكينة والهدوء ، تغبطها عليها جاراتها . فالامر على خلاف ذلك في البلاد الداخلية والساحلية ، حيث أنشب الغزاة الصليبيون أظافرهم في الساحل مرة بعد مرة . وأوغلوا في الداخل وأعملوا التخريب في جوف البلاد ، حتى وصل تخريبهم الى حمص وحماة ودمشق . وفي الداخل تدفق السلاجقة

---

(١) كرد علي ج ١ ص ٢٩٤

قبائل متبربرة في مناكب الارض العربية ، يذبحون الناس ويحرقون الغلات ويهدمون المدن ، ثم ينصرفون الى قتال بعضهم بعضاً ، حتى آخر رمق من الحياة فعادت البلاد خلواً من آثار العظمة ، وذهب عنها رواؤها ، ولم يبق الا فلاحون مغلوبون على أمرهم ، بؤساء ، يعملون في أرض نكراء وجند مأجور همه النهب والسلب وإثارة الفتن ، وبقية من عرب خيم عليها يأس قاتل تنتظر من يبعث فيها الرجاء ، وسوف تلبث وقتاً يزيد على نصف قرن ، حتى يقبل نور الدين ، وصلاح الدين .

ولكن جبال البهرة لم تكن كالجزيرة في خضم الحوادث لا تتأثر ولا تخرج عن عزلتها الحالمة . ولم يكن من المحتمل أن تبقى على هذا الوضع ، بعد التطورات الجديدة التي طرأت على العالم العربي . فلا بد أن يحمل الموج السفينة الى شاطيء السلام ، أو يغرقها . وهكذا بدأت قصة الدولة الجديدة بانثيال جموع من المشردين المغامرين الى قلاع جبل البهرة ، ليجربوا حظهم في الوطن الجديد ، وقد بلغ عددهم ٦٠ الفاً على تقدير وليم الصوري (١) .

(٣) **سيطرة الاسماعيليين**: كان مجيء الاسماعيليين الى هذه المنطقة ، وعلى صورة جماعات كبيرة ، نتيجة لأزمة خطيرة مرت في حياة الامة العربية . فقد أطبق الصليبيون من الغرب على الساحل السوري ، وهجم الفرنجة على المغرب وطردوا الفاطميين من المهدية ، واندفع السلاجقة من الشرق فتوضّعوا في قلب العالم الاسلامي والجناح العربي الآسيوي وبدأ صراع مرير بين الفاطميين والصليبيين على الساحل ، دام نحواً من نصف قرن . كما

---

(١) **فيليب حتى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٦**

نشبت حروب أخرى في الداخل ، بين قوى السلاجقة المفككه وجيوش الفرنجة الغزاة .

وفي مطالع القرن السادس الهجرى ، وخلال الربع الاول منه ، لقي الاسماعيليون في بلاد فارس ، وفي حلب ودمشق ، كما سلف، ضروباً متنوعة من الضغط والذبح والتمثيل ، حملتهم على التفكير بوطن جديد ، يتوفر فيه الهدوء ، والمنعة والحرية . والفوا منطقة مصياف عامرة بالقلاع ، حافلة بالخيرات ، حصينة ، منعزلة ، وفيها من أنصار الدعوة مايشجع بالمجيء اليها.

وبدأت موجات الهجرة الاسماعيلية تتوالى باستمرار ، وتزداد بازدياد الضغط السلجوقي في فارس والعراق والصليبي في منطقة طرابلس والبقاع . وعندما بلغ الاضطهاد اوجه في قلاع فارس الاسماعيلية طفحت دروب جبال البهرة بالهاربين المضطهدين والمغامرين الحاقدين ، والمتطرفين القساة . وذلك نحواً من سنة ٥٢٢ هـ .

وفي هذه الفترة ما بين (٥٠٠ - ٥٢٥ هـ) تكاثر عدد الاسماعيليين الوافدين ، وامتلأت رحاب الريف الهادىء ، بذوي العيون الزرقاء ، القادمين من بلاد الفرس . واصحاب الوجوه النحاسية والسمراء ، المقبلين من وادي التيم ، وربوع دمشق وصلخد .

ولم يكن يجمع هؤلاء العرب ، والفرس ، والأكراد ، في هذه البقعة ، الا هدف واحد هو الاشتراك في عقيدة فكرية ، والعمل لاقامة دولة واحدة يتقاسمون فيها السراء والضراء ، تحت جناح امام معصوم ، ظاهر اومستور ورعاية حجة من حججه ، أو داعية من دعاته ، تستوي عندهم الحياة بالموت في سبيل مرضاته .

وعندما أيقن هؤلاء المغامرون الأذكياء ، بقدرتهم على احتلال المنطقة والسيطرة عليها ، بادروا للعمل وتوسلوا بالحيلة والمـال لامتلاك عدد من الحصون والقلاع . وقد جربوا هذه الاساليب قبـل الاستيلاء على منطقة مصياف . ومن الأدلة على ذلك ، وعلى تمكن المغامرة والتطرف في قلوبهم أنهم بدأوا تصيّد الحظ ، عشرات السنين : في سواد العراق ، والبحرين ، والقاهرة ، وفارس ، ودمشق ، ووادي التيم . ومـا لبثوا ان توضعوا في جبال البهرة ، حول عاصمة قلاع الدعوة (مصياف) واستقروا في حنـايا الاودية وعلى السفوح ، يستنبتون الغـلات ويشيدون القرى والحصون ، ويعكفون على العلم والأدب والفلسفة ، لإغناء مكتباتهم وتنشئه صغارهم على حب المعرفة والتعلق بالدعوة ، ويدربون فتيانهم على الشجاعة الفذة والتضحية بالحياة ذوداً عن الوطن . ومن مكامنهم في جبل البهرة ، وجهوا سهام الانتقام لجيرانهم الذين ناصبوهم العداء . وانقلبت جبال البهرة من حال الى حال لدى وصول الاسماعيليين . فشرعت تهاجم خصومها بجرأة نادرة ، بعد أن عاشت تحت رحمة الصليبيين تدفع لهم الجزية ، في عهد الامراء السابقين ، ولذا استسلم بعض امراء المنطقة ، كابن عمرون للاسماعيليين وباع حصن القدموس ٥٢٥ هـ لأبي الفتح الاسماعيلي ، تخلصاً من الضغط الصليبي ودفع الجزية . بينما رفض البعض الآخر الامتثال لرغبتهم كصاحب قلعة مصياف ، فدبروا له مكيدة اودت بحياته ووثبوا على القلعة واحتلوها سنة ٥٣٥ هـ . وتم لهـم فيما بين (٥٢٥ هـ - ٥٤٥ هـ) الاستيلاء على حصون البهرة ، وبدأوا مرحلة جديدة من الكفاح لتوطيد دولتهم الناشئة .

٤ - دور التأسيس : (٥٣٥ هـ - ٥٦٠ هـ)

ما كاد الاسماعيليون يستقرون في هذا الوطن الجديد ، حتى واجهتهم مشاكل عسيرة . تقتضي الحل الجريء ، والفكر الثاقب ، والشجاعة الفذة مع الحكمة والروية وفهم الظروف السياسية والدولية وأهم هذه المشكلات ايواء الوافدين من انصار الدعوة ، وخلق وحدة متماسكة من تشتت الاهواء ، والمنازع . والدفاع عن المنطقة ضد عدوين قوين ، في الشرق والغرب ، وتوضيح العلاقة بأصحاب قلعة ألموت في فارس .

وقد استطاع الاسماعيليون ، في هذه الفترة من عمر دولتهم في مصياف ، ان يحلوا هذه المشاكل بحكمة وبصيرة ، فبرهنوا على أنهم من أسطع العناصر واقواها على مغالبة العراقيل ، والتكيف مع الأحوال المتطورة ، وأجرأها على استعمال السيف ، والاستمساك بالسلطة . فلم يحجموا عن الجهاد الحربي العنيف ، والاغتيال السياسي الرهيب ، عندما اقتضت الضرورة ذلك : ومزجوا بين الحياة الواقعية ، والمثل الرفيعة النظرية . وكان الاسماعيلي يتميز بعنفه وتطرفه ، وكبريائه التي لا تقهر ، وتمرده على مفاهيم عصره ، فهو انسان فذ ، لاتلين له قناة ، وشجاع لايرهب الموت ، ومفكر عبقري لايخضع الا لقوة العقل المنطق ، يغريه التطرف ، وحب المغامرة ، والتمرد . مشهور بسعة آفاقه ، ودأبه على العمل ، عنيد صارم لا يلين في مقاومة خصومه ، ولكنه سلس القياد ، لين العريكة ، في اطاعة أئمته ، عميق الثقة بهم ، يموت دفاعاً عن عقيدته ، وتنفيذ أوامر أئمته ، بنفس رضية . أو أليس ذلك من غريب الامور ؟ ثم أليس من غريب الامور أن ينشيء دولة منظمة هادئة ، بحفنة من المغاوير ، تحت أعين أقوى الدول في العالم ، ويناصبها

العداء ، ويخرج ظافراً في معظم معاركه ، ومغامراته ؟!

وتولى قيادة الاسماعيليين في هذه الفترة : (بهرام بن موسى) ، ثم (أبو محمد) ومما يميز هذا العهد ، أن مصياف كانت تابعة لقلعة « ألموت » في بلاد فارس . ولم تنفصل وتستقل عنها إلا بمجيء راشد الدين سنان . وقد جعل الداعيان المذكوران قلعة مصياف منذ (٥٣٥ هـ) عاصمة لهما لأهمية موقعها فأصبحت مركزاً لنشر الدعوة، وتدريب الفدائية، وعقد المؤتمرات السياسية ووضع الخطط الحربية ، للدفاع والهجوم (١)

ولا شك أن عهد شيخ الجبل راشد الدين سنان ، يدين بكثير من عظمته وازدهاره ، للأعمال الجليلة ، التي قام بها هذان الداعيان ، في الحقلين الخارجي والداخلي (٢) .

وكانت قلاع الدعوة تتلقى فيضاً متواصلاً من الاسماعيليين المضطهدين الوافدين من الشرق والغرب ، هرباً من الارهاب الصليبي والسلجوقي . وما كان يقدّر لهذه الجموع المحرومة المقهورة ، ان تقف مكتوفة الايدي ، ولا ينتظر ممن تأصلت في نفوسهم منازع الحرية ، وتوهجت في دمائهم دوافع الثورة والنقمة . السكوت على ما تجترحه في حقهم الدول المجاورة ، وقد مهر دعاتهم في استغلال هذه الميول لتثبيت دولتهم وارهاب خصومهم .

ومن أجل ذلك جهد الدعاة في تقوية البناء الداخلي ، بايواء القادمين وتأمين مواردهم ، واعدادهم لمهمة العمل السلمي والحربي معاً . ونهض الاسماعيليون بجميع المسؤوليات الداخلية والخارجية في آن واحد . فالفلاحون يكتسحون الاراضي

---

(١) عارف تامر ، سنان وصلاح الدين ، ص ٣٢

(٢) ميشيل لباد ، رسالة في تاريخ قلعة مصياف ، ص ١٤

البور ويقتطعون الاشجار لزرع الحبوب ، والنساء تعمل ليل نهار في نسج الثياب الصوفية والبسط ، والصبية الصغار جنود الغد يذهبون الى دور الدعوة لتعلم أصول الدعوة الاسماعيلية ، وداعي الدعاة يدأب ليل نهار مع أعوانه في رسم الخطط ، وتنفيذ الأعمال الخطيرة ، دون أن يهمل شاردة أو واردة من شؤون دولته الصغيرة . فيقضي في الخلافات الطارئة ، ويشرف على ترميم القلاع ، ويشجع المدرسين في دور الدعوة ، ويرقب من على قلعة مصياف ، دولاب الحياة ، وهو يدوز بدون انقطاع . مستعيناً على ذلك بأعوانه المخلصين ، الموزعين في القلاع والحصون ، الذين يرفعون اليه تقارير مفصلة ، عن جملة الاوضاع في أرجاء دولته .

وهكذا بدأت تظهر دولة جديدة رغيدة العيش ، على غاية من النشاط والحيوية واليقظة ، توحدها الأهداف والآلام المشتركة ، وتهيمن عليها وحدة العقيدة ، وقدسية الامام المعصوم . ويجمعها مصير واحد مشترك .

ولكن هذه الدولة الفتية المتماسكة ، أثارت بتقدمها ونموها السريع ، حفيظة جيرانها . وحركت عوامل الخوف لدى الصليبيين والمسلمين ، « وكانوا كلهم يكرهون مجاورة الاسماعليين » ويتهيبون نتائج امتلاكهم حصن القدموس وبقية الحصون(١) .

وقد أدرك الاسماعيليون وجه الخطورة في وضعهم الجديد . فأعدوا العدة اللازمة للوقوف في وجه الطامعين ، فهاموا بتدريب فدائيتهم الرهيبة ، لحرس القلاع وحرس الحصون . وبعثوا بفرق الاستطلاع الى قلب الدول المجاورة ، لمعرفة نوايا الخصوم وما يبيتون من شر ، وقد تزودوا بكافة

(١) كرد علي ؛ الخطط ؛ ج ٢ ص ٧

المعلومات الضرورية وأتقنوا لغات الخصوم ، وعاداتهم وعقائدهم ، ليسهل عليهم أداء مهمتهم . وعمدوا الى ترميم القلاع وشحنها بالجنود وترويدها بالمؤن والاسلحه ، وحماية جبال البهراء من مطامع نور الدين الذي احتل المنطقة الداخلية من البلاد . وعمل على ضم الامارات المتنازعة في دولة موحدة الاهداف لدفع الغزو الصليبي . ولذا حاول الإستيلاء على قلاع الدعوة في جبل البهرة بعد استيلائه على سهول العاصي واحتلال حمص وحماة وقلعة بعرين ، لخلق جبهة قوية متماسكة . ولكنه يصطدم منذ الوهلة الأولى ، بمناعة قلاع الدعوة وخطر الفدائية الباسلة ، فيلوي بجيشه نحـو الداخل ، ليسحق الدويلات السلجوقية الهزيلة ثم ينصرف لمناوأة الفرنجة .

وفي غفلة الدول المجاورة واصطراعهـا . ينصرف حكام مصيـاف الاسماعيليون لتوسيع رقعتهم ، وبسط نفوذهم على القلاع المجـاورة . وقد دأبوا منذ انتزاع مصياف من بني منقذ على مناصبتهم العداء وإرسال فدائيتهم الى قلعة شيزر ، مركز أمارة بني منقذ ، لتنفيذ أوامر شيوخ الجبـل . ويفهم من كتـاب الاعتبار ، أن أسامـة بن منقذ أمير شيزر كان يكره الاسماعيلين ويخافهم ، لأن دولة مصياف ، ماانفكت ترسل مغاويرها الى شيزر حتى حل بها زلزال فدمر قسماً منها وقضى على حكامها . فاستولى مغاوير مصياف عليها . (٥٥٢ هـ) وبقيت بأيديهم حتى انتزعها نور الدين ٥٦٤ هـ في عهد راشد الدين سنان (١) .

وهكذا قُدر لأتباع إسماعيل ، أن يوطدوا سلطان دولة فتية في منطقة مصياف ويثبتوا أركانها ، بفضل مااصطنعوه من وسائل دفاعية وهجومية ،

---

(١) مشيل لباد ، تاريخ قلعة مصياف ، ص١٧

واستغلال الظروف الدولية ، وغفلة الحكومات المجاورة . وغدت بحصونها المنيعة ومغاويرها الشجعان ، وسياستها الناشطة ، في حرز أمين من غزوات الجيران وتعدياتهم ، وقد أدرك سنان بعبقريته الفذة أهمية هذه الوسائل ، فأولاها عناية بالغة ارتفعت بها الى ذروة الكمال والقوة ، في عهده الزاهر .

٥ - دور الذروة : (٥٦٠ هـ - ٥٩٠ هـ) - راشد الدين سنان

حياته: لمعت في هذا الدور ، شخصية تاريخية جذابة ، تركت أثراً حياً في التاريخ . وزرعت في قلوب أبناء العصر الوسيط من الحب والرهبة قدراً كبيراً . ونثرت من الاشلاء والدماء ، بقدر مابعثت من الخير والرفاه ، واختلف الناس حولها اختلافاً بيناً ، شأن كل العبقريات . وحيكت حولها الروايات والقصص والاساطير ، في العربية والاجنبية . وبلغت من سعة الصيت وجلال القدر والشهرة حدوداً لم يطمع بأكثر منها كبار ملوك العصر . تلك هي شخصية سنان راشد الدين بن سليمان البصري .

ولد سنان بن سليمان الملقب براشد الدين (والمكنى بأبي الحسن) في البصرة ، أو في قلعة « ألموت » ، على خلاف في الرأي بين المؤرخين سنة ٥٢٨ هـ . وتثقف بالعلوم الاسماعيليه في المدرسة النزارية في « الموت » ، وقد بدت عليه علائم النجابة والنبوغ في سن مبكرة ، فارتقى في مناصب الدعوة ومراتبها ، حتى أصبح من اكبر الدعاة وأعلمهم . وأهلته جدارته في نظر الامام القاهر لتنظيم الدعوة الاسماعيلية في العراق . فأوفده الى البصرة وزوده بإرشاداته وتعاليمه ، حتى إذا استقر في البصرة تمكن بوقت قصير من إعادة النشاط الاسماعيلي في العراق بشكل اقوى وأوسع من ذي قبل (١) .

---

(١) مصطفى غالب : ص ٢٠٥ - ٢٠٧

وبعد عام واحد توفي ابن عمة الامام القاهر ، فغادر سنان البصرة الى حلب وجبل السماق ، ليتولى شؤون الدعوة في سورية ، بعد ان اصبحت الاسماعيلية فيها على وشك الانقراض ، نظراً للخلافات التي نشبت بين بعض الدعاة (١) سنة ٥٥٧ هـ .

وصل سنان الى حلب ، فأعاد النظام الى صفوف الاسماعيليين وشرع الناس يتوافدن اليه لسماع أحاديثه الشيقة ، وحججه القوية ، فأدهش العلماء والفقهاء بما اظهره من مقدرة علمية فائقة ، جعلته يحتل مكاناً سامياً في القلوب ، وارتفعت منزلته ، وقوي نفوذه .

ثم نقل مقره الى منطقة مصياف . فوصل متخفياً واقام بمصياف فترة من الزمن لايعرفه فيها أحد ، ثم غادر مصياف بعد مدة الى قرية بصطريون قرب الكهف ، واخذ يشتغل بتعليم الصبيان الخط ، ويعالج المرضى بمهارة ملموسة ، حتى لقب بالطبيب (٢) ، واشتهر بين الناس بتقاه وزهده وصلاحه . فعظمه الناس ، ولقبوه بالشيخ العراقي . وكان هذا الشيخ ، يلبس بردة يمنية ، يغسلها بيده ، ويحتذي خفاً من صنعه ، ويحيط نفسه بكل مظاهر التقوى والوقار والهيبة . وعمل على مساعدة الشيخ (أبي محمد) في الكهف ، سبعة أعوام حتى دنت وفاة (أبي محمد) ، عهد الى راشد الدين سنان برئاسة الدعوة (٣) .

---

(١) غالب ص ٢٠٨ هناك خلاف بين مايرويه السيد مصطفى غالب ، وما تحكيه المخطوطات الاسماعيلية في مصياف .

(٢) يلاحظ ان معظم الدعاة كانوا يمارسون الطب والعلوم السرية كالقداح وسنان ... الخ ولعل ذلك كان وسيلة لاخفاء اهدافهم .

(٣) مخطوط اسماعيلي « مناقب المولى راشد الدين » .

ويبدو ان سناناً لجأ للتخفي والتستر تمهيداً لفهم الأوضاع ، واستجلاء الأمور ، لمعالجتها على اسس منطقية واضحة . كما يلاحظ أن الاسماعيلين في هذه المنطقة ، قد جنحوا الى الانفصال عن « ألموت » في فارس ،وعكفوا على بناء حياتهم الجديدة ، على اسس معقولة من العمل والتنظيم ففقدت « ألموت » صلتها بمصياف ، وخسرت سلطانها ، بعد أن عجزت عن حماية اتباعها في فارس من غزوات السلاجقة المتلاحقة . ولعل سناناً ، فهم ذلك وادركه ، فمال الى التمكين لنفسه بقواه الشخصية الخارقة ، والتدليل على زعامته بصفاته ومزاياه وبما تحدر اليه من اصالة الدم ، وعراقة النسب . وكانت ثقة سنان بنفسه ونظرته الثاقبة ، سبيله الى المجد وبلغت دولة مصياف في عهده الذي امتد ثلاثين عاماً ، ذروة الازدهار والعز ، ومرجع ذلك شخصيه سنان ، ومؤسساته الرائعة ، وسياسته الناجحة .

ظروف الرجال تجلو شخصياتهم : من أسرار عبقرية سنان أنه اسماعيلي نموذجي، امتاز بسعة الافق العلمي ، والدهاء السياسي ، وبقدرته العجيبة على التنظيم ، والتدريب ، والتنفيذ . كما اتصف بفهمه العميق لظروف الحياة الدولية في الخارج ، والمنازع الفكرية في الداخل ، واستغلاله لها جميعاً ، بمهارة استرعت اعجاب الناس ودهشة المعاصرين . والى نجاحه في جميع أعماله يعود تقديس اتباعه لشخصيته . لأن الناس في جميع العصور يميلون لتمجيد الاقوياء، ورفعهم الى مرتبة الألوهية ولا سيما في العصر الوسيط حين قلّ الأمن واضطربت شؤون الحياة .

وكان الاعتقاد السائد ان الشخصية القوية من دلائل رضى الله ونعمته ، ونجاح الرجل ، من علائم التوفيق والتأييد الالهيين . فهل تدهش بعد ذلك

لتقديس شخصية سنان ، والانفصال عن قلعة « ألموت » الفاشلة ؟!! لقد اضحى الانسان المتفوق في العلم والسياسة والأعاجيب السحرية ، مصدر وحي لاتباعه ، ومنبع الهام في خلق الوحدة والانسجام في دولته، ومبعث كل نظام وقوة في حياة انصاره ، ومهوى الحب العميق والتقديس .

فكيف اذا استحوز رجل عريق النسب ، على جميع صفات القائد العسكري البارع ، والعالم النابغ ، والسياسي العنيد الفذ ، في زمن انحدرت فيه حياة اتباع اسماعيل الى هاوية اليأس ، وترقبوا مجيء المنقذ بفارغ الصبر شأن جميع الفئات المضطهرة المغلوبة في العالم .

لقد ابتلى الاسماعيليون في نهاية عهد أبي محمد بمرض العصر فبدأ النزاع ينخر في قلب المنطقة ، وشرع نور الدين والصليبيون يصطرعان عند تخومها فتملك نفوس الناس في جبل البهرة ، الخوف والاضطراب وامتزج خوفهم الجديد ببقية خوفهم القديم ، وتشوقوا الى شخصية قوية تفرض النظام في الداخل ، وتتصدّى للخصوم في الخارج .

وآمن الناس عصرئذ بأن الحياة ستسير إلى خراب ويأس ، إذا لم تظهر شخصية تتحدى القوى الكبرى المتعاركة ، والدنيا الى شر ، إذا لم يظهر فيها الامام المعصوم ، الذي يتعلق به الغارقون في لجج اليأس والخوف ، وذكريات التشرد . فلا بد من قائد مارد مسيطر قوي العقل محنك يبهر الناس بسحر شخصيته ، وسداد خططه ، ونجاح سياسته ، لابيهرج ثيابه ولمعان الذهب في تاجه . لأن العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ، وبالسلاح والخطط الحربية ، وببريق السيوف لابريق التيجان » . وقد تمتع سنان

بالشخصية المطلوبة ، وامتلك جميع الصفات القيادية التي تلبي حاجة اتباعه، واستخدم ارادته الحديدية في توجيه ميول اتباعه وظروف محيطـه لخدمة دولته الناشئة .

ولا شك ، أن سناناً فكر وهو في طريقه الى جبل البهرة ، بما يحتـاج اليه قائد الفرقة الاسماعيلية في ذلك العصر العجيب ، وفي مثل تلك الظروف من استجماع نواحي العظمة والتفوق ، مع التقوى والرهبة ؛ لان الاسماعيلي لا يهوى الا الغلو في فهم العظمة والغلو في فهم المجتمع ، ورسم المثل العليا . ولا يتعشق الا الغموض والأسرار ، مع نزعة عملية في استخدام ذلك كله في ظروف الحياة ، وتفسير غوامضها . فأقبل سنان بنفس عامرة بالاخلاص والهمة ، وعقل واسع العلم يفيض بالحكمة .

« اذ امتاز سنان بمعرفة الجبر ، والشعر ، والفنون ، وعلم النجوم » (١) .

« وكان أديبـاً فاضلاً عارفـاً بعـلم الفلسفة ، وله شعر حسن وكلام منثور جيد » (٢) .

واشتهر بالقدرة على القيادة ، فكان قائداً فذاً وشجاعاً مقداماً ، وعلى جانب عظيم من المعرفة والذكاء » كما يقول إيفانوف .

وكان طموحاً ، نشاطه لا يحد (٣) ، وارادته لا تغلب ، فـانقاد اليه الاسماعيليون في سورية مالم ينقادوا لغيره (٤) . مما اثار دهشة المؤرخين

(١) ايفانوف ، الموسوعة الاسلامية ، مادة سنان .
(٢) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٢ .
(٣) le Gui des Blues
(٤) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٢ .

المسلمين والفرنجة على السواء ، واندفع ابن جبير الذي زار سورية في عهده يقول : « ان الاسماعيليين ، يبذلون الانفس دون امامهم سنان ، وحصلوا من طاعته ، وامتثال امره ، بحيث يأمر أحدهم بالتردّي من شاهق جبل فيتردّى » (١) .

وألقى سنان بشخصيته الفذة وسط فوضى الاحداث ، فدلل على امتياز عجيب في ادراك نفسية الجماهير ، واستخدام منازعها في سبيل انجاح سياسته الداخلية والخارجية ، وقاد طائفته الى ذري العظمة والقوة .

وكما امتاز بعلمه الغزير ، وقيـــادته الحكيمة . اشتهر كذلك بزهده ، وعفته وتقاه الصوفي ،وعُرف ببساطة العيش والاعتدال في المأكل ،والمشرب والمسكن ، والملبس . لأنه كان يقدر أثر القـــدوة الحسنة في تقويم الرعية وانقيادها .ولعله ادرك انه في جهاد دائم ، يقتضي التقشف والاستعداد الدائم للتغلب على كل عوامل الضعف في جسم دولته ، ورد كل عدوان عنها . فكان يعمل بنشاط بالغ وحيوية لا تهدأ في تعليم الانصار ، وحضهم على الجهاد ، وتقويم ميولهم وتصرفاتهم . مستعيناً بقدرته الخطابية ،وشخصيته السحرية فكان اذا خطب جلس على الصخرة ، داعياً الى نحلته ، ثم يصبح بعد قليل ، لا يختلف عن الصخر جموداً وصلابة . وقد أثارت هذه الظاهرة المدهشة عجب الناس (٢) فإزدادوا تعلقاً به ،وانقياداً لسلطانه الذي لايقاوم وقد استوعب سنان الغايات البعيدة ، والوسائل المؤدية اليها فمضى لتحقيق أهدافه ، بقدم ثابته وعزيمة كحد السنان .

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٤ .

(٢) ايفانوف انظر « تاريخ قلعة مصياف » .

سياسته الداخلية: تجلت عبقرية سنان بما بعثه في نفوس الاتباع، من حيوية دافقة، ونشاط عظيم. وبما احيت من مثل، وحققت من انسجام ونظام وبما استطاعت ان تنعش من آمال زاوية، وأحلام خاوية، كل ذلك يجري بسنن وأصول، تحت اعين الجيران الحاسدة وفي بقعة جميلة ولكنها صغيرة، ضيقة الابعاد.

غير ان سلطان سنان، وعبقريته، لم تجعل منه فاتحاً كبيراً يضم الممالك، ويكتسح الدول. ولكنه اكتفى بحدود دولته. وصرف جل عناية؛ لتنظيم مرافق حياتها، واسعاد ابنائها، دون أن يخسر شيئاً من املاكه، أو ينال ما يذكر من املاك جيرانه. وكل ما فعله، أنه ضمن الهدوء والامن، ونشر السلام والعدل وحسبه فخراً ما توصل اليه بجهود كبيرة من استقرار الحكم، وهيبة الحاكم، وتدريب الفدائية، لدفع الخصوم عن التخوم. وادرك بغريزته أن عهد التوسع قد انتهى، وان حماية اتباع اسماعيل يتوقف على الدفاع المحكم لا الهجوم اليائس.

فعكف على بناء حياة اتباعة بناءً صلباً كصلابة عقيدته، متيناً صامداً صمود قلاع الدعوة، على أسس من الرحمة، والتعاطف، وسعة الصدر. ونهض بهذه المسؤولية على صورة تستدعي العجب، فأستعان على تربية اتباعه، بماله من سلطان نافذ في نفوسهم، وحب راسخ في قلوبهم، وهيبة استحوزت على جوارحهم. وانطلق كالمارد يعمل بصبر، ودأب، وجلد، طيلة ثلاثين عاماً، محفوفة بضروب متنوعة من المخاطر والعقبات، ولكنه كان واثقاً من النصر في جميع الميادين فبلغ ما توقع:

فنجت دولة راشد الدين في مصياف من خطر الفوضى، وبلوى التقسيم وعلل الحروب والمنازعات العائلية، كما لم تنج دولة أخرى في ذلك العصر.

كل ذلك بفضل سياسة سنان الداخلية وقدرته على تصريف شؤون الدولة وتوجيه الاتباع نحو البناء والعمل والاستعداد للخطر . فلم يفسح مجالاً للتذمر ولم يترك سانحة الا استغلها في تمكين سلطانه ، وفرض احترامه .

ومن أسباب توحيد الصف الداخلي ، أن سناناً لم يطلب من أتباعه المستحيل ، ولم يرغمهم على السخرة في ترميم القلاع ، ولكنه أيقظ في نفوسهم حب المجد ونبههم الى الخطر الداهم ، وسلط عليهم سناء عبقريته الأخاذ ، فدفعهم للموت في سبيل دولته ، وعلى ثغورهم بسمات الرضي والإطمئنان . فإذا قيست عظمة الرجال بما يبعثون من حب العظمة في نفوس الاتباع ، فسنان من أعظم الرجال على الاطلاق . لأنه قذف بأحفاد قرمط ، وابن الصباح ، في حلوق الخصوم فأخرسهم . وخلق من فتية مغامرين أقوى منظمة سرية في العالم .

وندر أن يوجد بين الحكام من يتوصل لفهم عقلية العامة ، وتسخير ميول الشعب وغرائزه ، والإفادة من ظروفه وعقيدته ، كما فعل سنان راشد الدين ، فالحياة المادية والروحية تخضع لتوجيه سنان ومساعديه ، وتسير حسب مصالح عامة الشعب ولخدمة أهداف بينة واضحة . وتتلخص في حماية الدعوة الأسماعيلية وصيانتها من الهدم والفناء ، في عالم ضاعت معالمه وطاشت سياسته ، وجمحت به أهواؤه لذا نظم الجمعيات السرية ورمم القلاع ، ونشر الأمن (١) .

وبلغ سنان مرتبة القديسين في نظر الاسماعيليين ، لما امتاز به من شجاعة مع روية وإلفة في هيبة ، وصلابة في رحمة ، وقسوة على الخصوم ، وحلم

---

(١) انظر بحث الفدائية والقلاع في مكان آخر

واسع مع الاتباع ، مهما ندّ عنهم نحوه من أخطاء كما حدث في بداية حكمه وكان يخلب ألبابهم بقواه السحرية ومعارفه الواسعة ، وطلعته المهيبة ونظراته الحادة النافذة كسهام القدر . ولو قيّض له دولة أخرى ، لحظي بمكانة من نوع آخر في التاريخ .

هذه الشخصية الخلابة ، حدت بمعاصري سنان وأتباعه على السواء ، أن ينسبوا له الخوارق ومعرفة الغيب ومناجاة الجماد ومحادثة الاموات كما عزوا اليه معرفة السيما والسحر . منها مثلاً مايروى عنه من معرفة مادار في أحد مجالس السمر في مصياف من التهكم عليه واغتيابه وإيعازه لو كيله بتوبيخهم وزجرهم (١) .

ومما يمكن استنتاجه من هذه المرويات ، وما يعرف عن هذه الطائفة وكبار دعاتها ، من تمسك بالحذر ومعرفة باستخدام المراسلات السرية ، ومقدرة على التلاؤم مع الظروف ، أن سناناً كان قد بث في أنحاء دولته ودول جيرانه شبكة من المخبرين السريين يراسلونه بواسطة النار والحمام الزاجل الذي مهر في استخدامه الاسماعيليون مهارة فائقة تتمشى مع خطتهم في الحذر والحيطة ومع ماتتسم به دعوتهم من غلو في الاسرار ، وإغراق في التكتم . وفي المساء ، وعندما تغفو مصياف يخف سنان راشد الدين ، الى قمة جبل مشهد ، أو يؤوب الى عرينه في أعالي القلعة ليتلقى رسائل الانصار ، تحملها حمامات بيضاء من الشرق النائي أو الغرب القصيّ

---

(١) يمكن الاطلاع على مثل ذلك في مناقب راشد الدين (مخطوط) وفي قصة جرجي زيدان من صلاح الدين ، وفي قصة « وردة العالم » الانكليزية .

فتقرع النوافذ بمناقيرها المقوسة ، وتلمع عيونها في الظلام لتنبه شيخ الجبل فيتلو الرسائل ، ويعكف على دراستها ثم يخبر من حضر من أتبـاعه ، ويتناقل الناس ذلك عنه فيمسي عالماً بالغيب لديهم ؛ سيما عندما تتحقق الاخبار فيما بعد (١) وهذا دليل قاطع على ذكاء هذا الحاكم وقدرته على بناء الدول والحفاظ عليها أيضاً . ولقد جعل من مدرسة الكهف مركزاً لتدريب الفدائية ومنظمات الاستطلاع السرية . حتى اذا بلغ طلابها مرتبة الجدارة في علمهم بعث بهم ليرفعوا اليه أنباء قلاعه وأخبار أعوانه في الداخل وخصومه في الخارج ، فلا ينحدر الى مزالق الخطأ والزلل في معالجة الامور ووضع الحلول . ويجنب دولته الناشئة أخطار الفوضى وعلل الفساد ، الناجمة عن الحلول المرتجلة ، والقرارات المبتسرة التي لاتنيرها بارقة من بوارق الوعي والفهم والتبصر .

ولم يقف حذر هذا الحاكم النشيط وسهره ، عند حد تنظيم شبكته السرية العجيبة فحسب . بل لم يكن ينقطع عن التجول والتطواف في شعاب جبل البهرة ، متفقداً شؤون القلاع وأحوال الاتباع . « فكان يقضي أيام الاسبوع متنقلاً بين القلاع والحصون ، ويخصص يومين للاقامة بجبل مشهد ، حيث ينقطع للتأليف ، ورصد النجوم ، والتأويل ، ويكثر من الذهاب الى شيزر وحمص وحماة والشام متخفياً (٢)

---

(١) يمكن الاطلاع على مثل ذلك في مناقب راشد الدين (مخطوط) وفي قصة جرجي زيدان عن صلاح الدين ، وفي قصة « ورد العالم » الانكليزية .

(٢) عارف تامر - سنان وصلاح الدين - ص ٣٤

وهذا يؤكد بصورة جازمة ، الروح اليقظة المتوثبة التي تنطوي عليها جوارح سنان راشد الدين ، الرجل الساهر على سلامة أنصاره ، بدأب وصبر وعزم .
لقد أدرك هدفه بوضوح وسعى لتحقيقه بقدم ثابتة مقرونة بالروية والحكمة .

فلم يكن له من غرض الا صيانة أتباعه ، وحمايتهم من فوضى النزاع الداخلي وخطر الهجوم الخارجي . وجعل من كرامة الاسماعيلين وسعادتهم مبدءاً وهدفاً ، لايحيد عن تحقيقه قيد شعرة واحدة ، مهما كانت العقبات . ونصب من نفسه رائداً مارداً يقود الخطى ، ويحث الهمم لبلوغ الاهداف . دون أن يسمح لأية قوة في الخارج أو الداخل ، ان تنحرف به عن سبيله . وإذ أدرك نوايا خصومه الاقوياء في الخارج ، ورغبتهم في إبتلاع دولته ، القائمة كالشجى في الحلق ، عمد لحشد كافة إمكانياته المادية والمعنوية والشخصية ، لاعتقاده بأن تأمين الهدف الاول وهو حماية أتباعه ، يتوقف بالدرجة الأولى على متانة البنيان الداخلي ، وازدهار الحياة الاقتصادية ، وتقوية الروابط الروحية .

فنشر الأمن والهدوء ، مسلطاً على أقوال الناس وتصرفاتهم ، رقابة واعية بصيرة (١) ، هدفها الإرشاد وفرض النظام ، وغرضه من ذلك ، التفرغ للعمل الداخلي والخارجي .

وقد تمكن سنان بما بعثه من آمال عظام ، وثقة مطلقة بشخصه ، أن يحرك همم أتباعه على العمل الدائب في جميع الميادين ، وأن يسير بهم في مراقي التقدم والمجد ، طيلة ثلاثين سنة حافلة بجليل الاعمال : فنشر مدارس الدعوة وبثها في أرجاء دولته ، وزودها بأكفأ الدعاة والمدرسين ، لينشىء جيلاً راسخ الإيمان ، يعمل لإعلاء مجد الاسماعيليين في السلم والحرب ، همه زراعة الارض

(١) هذا مايفهم من مخطوط « مناقب المولى راشد الدين »

وجني الثمار ، والمشاركة في ترميم القلاع ، وتحسين الطرق ، وإنسال أجيال جديدة تتولى حمل الرسالة ، وصيانة الدولة .

ومضى سنان كالسهم النافذ في رسم الخطط ، دون أن يغفل إرهـاب خصومه والفتك بهم عند الحاجة . فدرّب فرق الفدائية في مدرسة الكهف ليجرع أمراء الصليبيين والمسلمين (١) ضروب الموت الزؤام غصصاً وعلى ميعاد ، وليضمن لدولته الصغيرة فرص الحياة .

وتكرّ الاعوام حافلة بالجهد والعمل ، وجبل البهرة يرتع في نعيم . بين جلال القلاع المهيبة ، وقوة الفدائية الرهيبة ، واغاني الريف الأخضر ، يتوج ذلك كله رضى سنان شيخ الجبل الوقور .

وتبدو الحياة بعد ثلاثين عاماً من الكفاح المتواصل لسنان ، جديرة بكل انواع الرضى ، وكل وسائـــل المجد الدنيوي ، والغبطة الروحية . فالقمم عالية تواكب النجوم ، والقلاع متآجنة صامدة ، تحرسها عيون الانصار الساهرة . وظلال السيوف . واحفاد اسماعيل ، والمعز ، يشبون جيلاً أثر جيل ، يترسمون الخطى على هدي الدعوة وفي وجوههـم أطياف الغد يسيرون خلف القائد راشد الدين، عبر درب شاق، من التدريب والتعليم الى مراقي الرجولة . وحياة مطمئنة وادعة ، على خلاف مـــا يحدث وراء الحدود من تخريب وتدمير تتحول معه حياة البشر الى جحيم لا يطاق .

فمن اولى بالتقديس ! من رجل بعث وقدة الجهاد والعمل ، في جسد اشرف على الهلاك ؟! ومن أحق بالتكريم من سنان البصري ، حامي الذمار

---

(١) يفهم من المصادر الغربيـة أن نشاط الاسماعيليين امتد حتى فرنسا وانكلترا انظر حتى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٧

وسيد القلاع ! لقد ادرك اهل مصياف ان اصحاب « ألموت » يتجرعون كؤوس الفشل ، ويرقبون النهاية الفاجعة ، شأن الفواطم في القاهرة . أفلا يجدر بهم نصب القائد الملهم اماماً تحوطه هالة التقديس والعصمة ؟! لقد ، مجد الناس القوة في جميع العصور ، واستولت مظاهرها على ألبابهم ، فهل تعجب لماذا ارتفع سنان الى هذه المرتبة السامقة ،من ضمائر الاتباع ؟! وماسر الاستقلال والانفصال ، عن قلعة « ألموت » العاجزة عن دفع الخصوم ؟! ان البشر يتمسكون بالقوة ويتعلقون بالاقوياء ، وقد خسرت ألموت قوتها فخسرت سلطتها على مصياف .لعل نجاح الرجل من اسباب خلوده وتمجيده وهذا بعض الدين تدفعه الشعوب ، للعظماء الظافرين ، غداة استسلامهم لسلطان ألموت .

وتحت لواء سنان ورعايته وفي ظل عطفه ، وفي مغاني جبل البهرة ، وخلف ستار الهيبة العسكرية ، والوجه الصارم للقلاع الحربية ،حفلت جبال البهرة بأنواع منوعة ، للحياة السعيدة ، والنشاط الرائع وغدت شواطىء البحر مسرحا لنشاط التجار الاسماعيليين ،ومرتعاً لاعمال الصيد والملاحة (١) يدفعون بالسفن الى متن الموج ، باسم شيخ الجبل وبفضل سلطانه ، دون خشية أو خوف .

وكان الناس في عهد سنان ، يشعرون بالامن والاطمئنان ، فيندفعون بوحي من العزيمة والرضى ، لزيادة الانتاج ، وتوفير وسائل العيش الكريم . ويتلؤون غبطة بعزلتهم السرية الجيدة ، وانتظام امورهم ، عندما يلقون

(١) يفهم من المراجع الغربية ان دولة مصياف كانت تملك اسطولاً تجارياً واسع النشاط .

بأبصارهم نحو تخوم الجيران الممزقة الاهاب ، بحراب العراك والتصادم .
وخيل لاتباع سنان ، وهم في ذروة الهدوء الداخلي،ونعيم الحياة المنظمة وفي قمة الظفر الخارجي والمجد السياسي . ان حلم الاسماعيلية الآفل بزوال الفواطم ، وموت ابن الصباح ، لم يطو الى الابد،وان بعثاً جديداً ينتظرهم تحت سماء البهراء . ويدغدغ آمالهم اندحار الخصوم واحداً إثر آخر،بفضل قائد شجاع وسياسي محنك ورث مجد الفواطم ، وعبقرية ابن الصباح . فهو مستودع علم ، و كنز روحي سخي ، ومصدر عـــدل ، وسيد مصير الدعوة ، ينتزع لها النصر انتزاعاً ، دون ان يبرح مـكانه وينزل الملوك عن عروشها باشارة من بنانه ، ويحول الخذلان الاكيد ، الى ظفر اكيد عندما يشاء . فالحياة اذا الى ازدهار ، واكاليل المجد في طيات الغد ، فما أجدرها من حياة لولا اعتمادها على السيف ؟!

نهاية المطاف : زحف الشيب الى رأس سنان البصري ، وهو يشب الى قمة المجد . متكئاً مرة على السيف، وأخرى على القلم والفكر ، خلال ثلاثين سنة . لقد اضطر اكثر من مرة ، ان يهجر عصا المعلم ، ليشهر سيف الفارس وان يمضي من القصيدة العصماء الى الملحمة الحمراء ، ومن هدوء الفيلسوف المتصوف الى ثورة الاسماعيلي المتطرف.فتحولت دولته على يديه الى معسكر كبير ، وحدته العقيدة الجامعة ، وسلطة سنان وقوته السحرية وحفزتــه للنشاط نوايا الخصوم ، وخوفه من الهجوم . ولعل سناناً ادرك ما تنطوي عليه حياة تبنى على هذه الشاكلة ، وتستند الى القوة العسكرية وحدها ، من اسباب الانحلال والموت ، بانفصام عوامل البقاء والتماسك ، ومبررات الوجود . فجنح للسلم وعاش على وئام تام في النصف الثاني من حكمه دون

ان يتخلى عن حذره وحيطته ، او يهمل العناية بالحياة الاقتصادية والروحية وبذا ضمن لدولته كرامة الاستقلال ، وعزة الوقار دون ان يجعل دولته تتخلى عن رواء الجمال وحرية الروح ، تلك الحرية الفكرية التي تفتحت عن اكداس من المخطوطات القيمة في منازل الاسماعيليين .

والقد ارهقت سنوات الحكم العصيبة شيخ الجبل ، وهو ما ينفك ، على عادته ، يروح ويغدو ، ليل نهار ، مطوفاً بين قلاع الدعوة في ثلة من خلص اعوانه ، يوزع الحب والرعاية والارشاد ، متفقداً حرس القلاع ، ناعماً برأى طفل يلغو بأسرار العقيدة ، وفلاح نشيط يغتصب الرغيف من الصخر الاعجف ، وفدائي امين ينتزع حياة الخصوم ، ويموت بعدها قرير العين (١) .

ستون عاماً تنيخ بكلكلها ، تحفل حتى الفيض بالجهد المضني ، ويأخذ الهرم سبيله الى جسد سنان وروحه . لقد بدأت ملامحه تتغير ، وسارع الشيب في التسلل الى رأسه ، واخذت قامته المديدة تنحني تحت وطأة العام الستين (٢) وتهب رياح الخريف مبكرة على خلاف العادة ، ويؤوب راشد الدين الى عرينه في قمة حصن مصياف ، مع نفر من أصحابه الاوفياء . حيث كانت تنعقد المجالس والمؤتمرات ، وترسم الخطط ، وتتلى آيات الوحي في حلقات الانصار . وكم شهدت هذه الحجرة الوقورة حديث سيد القلاع العذب ، وشعره الرقيق ، وحكمته الوافرة ، لتشهد بعدها السيد المطاع ، جسداً هامداً ، يدلف الى قبره بهدوء ويرقى سفح جبل مشهد للمرة الاخيرة

(١) هذا ما يفهم من مخطوط (مناقب المولى راشد الدين) .

(٢) يلاحظ ان كثيراً من عظمائنا لم يتجاوزوا الستين كالنبي (ص) وابي بكر وعمر .. الخ .

الى الذروة العالية ، تنفيذاً لوصيته ليقر في ظلال السنديان العتيق ، أبد الدهر . وتتلفت القلوب والعيون الى راشد الدين وهو يزحف نحو رمسه فتفيض المدامع ، ويقول الناس للناس « أحقاً مات سنان » ويعرف الرفيق الجواب ، عندما يرى دمعة كبيرة في عين رفيقه .

أتراه كان يفكر ، وهو يرد حياض الموت سنة ٥٨٨ هـ أي مصير قاتم كان ينتظر دولته التي عمل لها ثلاثين عاماً ؟! أم لعل دوره قد انتهى ، ولكل امرىء دور ، فأنصرف قانعاً بعزلته المتفردة ، ومرقده الصغير ، يستقبل وهو رهين القبر وفود الاحبة ، يرفعون اليه فروض التقدير والاكبار ، ويجعلونه مزاراً ، ومصدر عون . كما كان وهو على قيد الحياة . ولا يمر اليوم ببالهم أطيب من ذكراه ، كما لم يمر في دولتهم عظيماً يضاهيه .

٦ ـ الفدائية : امتازت الدعوة الاسماعيلية بتطورها مع الزمن ، كما اتصفت بشمولها وتكيفها مع المجتمعات البشرية ، فهي كغيرها من الحركات في العصور الوسطى ، تؤكد اهدافها الدينية ومثلها الخلقية ، وتبرر من أجل ذلك استخدام جميع الوسائل ، لخدمة النظام السياسي والسلطة الدنيوية ولو كان ذلك على حساب المبادىء والمثل ، ويؤكد ذلك معظم المؤرخين ، وهذا ما جعل الحركة الاسماعيلية تدعم سلطانها السياسي بالفدائية الرهيبة التي قدمت لشيوخ الجبل سلاحاً أغمدوه في صدور خصومهم في كنائس الصليبين وجوامع السلاجقة على حد سواء .

وهذا مايفسر التهجم الشديد ، من جانب مؤرخي الغرب والشرق على هذه الفئة خاصة ، والدعوة الاسماعيلية عامة . بيد أنه من الانصاف والعدل بيان العوامل الفكرية والتاريخية ، التي دفعت بهذه المنظمة السرية النادرة الى الوجود .

ولم تكن المنظمة الفدائية الاسماعيلية ، بالأمر الغريب الفريد، في تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، فكثير من امرر الحركة الاسماعيلية نادر المثـــال ، متطرف فذ ، يميل الى الجدة والغرابة والغلو ، في ذلك العصر القلق .

والواقع ان الفدائية ردة فعل سلبية عنيفة ، شنتها الحركة الاسماعيلية ، على خصومها ، بعد ان شهدت قواها السياسية تنهار تباعاً ، لتألب الأعداء وفتكهم المريع في بغداد وفارس والشام والجزيرة العربية بأتباع الدعوة .

فلم يكن بمقدورها أن تغفو على سكين القدر ، تشهرها الحركات المناوئة في الشرق والغرب ، وكان لابد لها من رد العدوان ، ودفع التحدي ، وإذ لم تسعفها مواردها الهزيلة ، وجيوشها القليلة ، استخدمت ذكاءها الوقاد ، في تنظيم هذه الاداة المروعة الصارمة ، لتأييد سلطانها السيامي ، وترسيخه في جبال البهرة ، آخر بقعة في الدنيا ، بعد ألموت ؛ يجد فيها رب الدعوة ، من على ذرى الجبل ، على مقربة من زرقة البحر والسماء، حيث يحلو لفئة مغامرة ثائرة شحذ الاسنة اللامعة ليوم عصيب .

وحاولت الدولة الاسماعيلية ان تتشبث بالحياة وسط صخب العواصف وتطاحن الشرق والغرب على صعيد المادة والروح . فلم تجد جيشاً يرتفع الى مستوى القوى المتصارعة ، ولم ترض لنفسها نهاية فاجعة ، دون أن تهرق من دماء المعتدين مايشفي غلة الصدى . ودفعها رعب قاتل ، وتجارب سابقة مع العباسيين والسلاجقة ، الى تنكب طريق الدعوة السلمية والدفاع العلني ، واعلان حرب خفية سرية يفتقر اليها الخصوم .

ومن الملاحظ ان الحركة عندما تلجأ لمثل هذه الوسائل من الحرب ، تعلن فشلها الذريع ، وتبرهن عن عجزها عن نشر افكارها بالطرق السلمية ،

وتأييد سلطتها بالوسائل المشروعة ، وهذا يعني انها في طور النزع الاخير ، وكأنها تردد قول الشاعر وقد طاف به اليأس من نشر فكرته سلمياً . وإذا السلم لم يقدك لخير فكن السيف او كن الجزارا.

ولم تكن هذه المنظمة التي تجنى عليها المؤرخون ، فسموا الاسماعيلين من اجل ذلك بالحشاشين لتعيش في الفراغ أو تنبت في الصخر ، فالمجتمع العربي بجملته ، انحدر في هذا العصر الى هاوية الانحلال والتفكك والعجز ، وجر معه الى نفس المصير ، جميع الحركات ، والمذاهب ، والفرق ، التي نبتت في احضانه . وكأن هذه الحركات ادركت ما ينتظرها في الغد ، فأعلنت افلاسها بخروجها عن طورها السوي ، واندفعت في فورة غاضبة تكيل لخصومها الصاع صاعين ، وهي تشهد ضياع الآمال . وهجوم الغد الاسود والمصير القاتم .

نظمت حركة الفدائيين تنظيمها النهائي ، على يد الحسن بن الصباح في فارس . فأصبح الاغتيال المنظم ، وسيلة سياسية شائعة منذ (٤٨٥ ﻫ) عندما قتل الوزير السلجوقي نظام الملك ، بيد أحد الفدائيين . وكان اغتيال نظام الملك اول اغتيال سياسي هام ، ومطلع عهد جديد في العمل السياسي يستند الى الارهاب السري مع القتال العلني والدعوة الفكرية . ورتب دعاة المذهب الاسماعيلي في هذا الدور على سبع درجات : ١ ـ داعي الدعاة ، ٢ ـ كبار الدعاة لمساعدته ، ٣ ـ الدعاة لنشر الدعوة ، ٤ ـ الرفاق وهم متبحرون في العلم ، ٥ ـ اللاصقون وهم من قبلوا المبادىء واظهروا الطاعة والولاء ٦ ـ الفدائيون وهم اهم الطبقات المذكورة في هذا العصر ، ٧ ـ المستجيبون وهم عامة من دخل في المذهب .

وقد وصف ادوار براون ، نقلاً عن ماركوبولو الذي زار فارس في القرن السابع للهجرة ، الجنة التي انشأها الحسن ، واجرى فيها قنوات من الخمر واللبن ، كان يرسل اليها الغلمان المخدرين بالحشيش ، ليمكثوا فيها زمناً ثم يحملون الى قصر الداعي ليزدادوا ايماناً به ، وهناك يلقنون أن العودة الى الجنة ، تقتضي التضحية وبذل النفس (١) .. الخ .

ثم يكيل بعض الكتاب التهم جذافاً الى هذه الفرقة ، والى مؤسسها الحسن ، ويصفونه بالمروق والزندقة .. الخ معتمدين على بعض الروايات المغرضه ، أو الوثائق الضعيفة ، دون تمحيص أو درس ، وكما تزين لهم أهواؤهم وميولهم ، حباً في اسباغ الجاذبية والطرافة على كتاباتهم .

وما يخطر لنا للرد على هؤلاء هو ان الحسن ، قد اقدم على جلد ولده حتى مات أمام ناظريه ، لأنه شرب الخمر ، فهل يمكن ان يبيح الحشيش ويحلل الفسوق لاتباعه (٢) ؟

ولابد من الاشارة الى ان ما قام به الفدائيون ، نجم عن اعتقادهم العميق بأن ارواحهم مسجونة في اجسادهم ، المكلفة باطاعة الامام المطهر ، اطاعة تنتقل بهم الى الانوار العلوية (٣) . وفي سبيل هؤلاء الأئمة المعصومين ، قدموا ارواحهم رخيصة . ولاحاجة بنا للافاضة في سرد الروايات المختلفة ، لتأييد ما نميل اليه في قرارة نفوسنا . من تنزيه الدعاة عن هذه الوسيلة .

وحسبنا ما رجحه المستشرق الكبير (**ايفانوف**) ، وغيره من المختصين

---

(١) شاكر مصطفى : ج ٢ ص ٤١٨ .

(٢) مصطفى غالب : ص ١٩٣ .

(٣) كرد علي ، الخطط ج ١ ص ٢٦٠ .

بالابحاث الاسماعيلية . من ان كلمة (حشاشون) محرفة عمداً من قبل خصومهم واصلها على الوجوه التالية .

١ - (Assassant (أساسان) ومعناها القتلة ، وهذه لفظة كان يطلقها الفرنسيون الصليبيون على الفدائية التي فتكت بقادتهم وملوكهم .

٢ - حساسون : نسبة الى الحسن بن الصباح ، مؤسس الفرقة الحقيقي .

٣ - عساسون : يقضون الليالي في حراسة قلاعهم وحصونهم .

ولعلّ المؤرخين المسلمين المعاصرين ، وعامة الناس . اشاعوا هذه اللفظة استنكاراً لأعمال هذه الفرقة وحنقاً عليها .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت هذه الفرقة اداة طيّعة قوية ، في حراسة القلاع وحماية الحدود . واخافة الصليبين والمسلمين مغبة العدوان على دولة مصياف .

ومع ما اشتهر عن الاسماعيلين من حوادث القتل ، يجب ان نذهب الى ان ما اجترحوه ، لم ينشأ عن عقيدة دينية ، بل عن افراط عرف به رؤساؤهم في نيل السلطة السياسية كما يقول (هوار) . وما كان القتل لديهم عن باعث مذهبي بل سياسي (١) . وهذه الوسيلة اتاحت لهم فرص البقاء والاستمرار في وسط عالم معادٍ ، وهيأت لشيوخ الجبل تنفيذ رغائبهم ، وتوطيد سياستهم ، وفرض هيبتهم ، على الدول المجاورة ، برغم ما تتمتع به من سلطان عظيم وملك واسع .

وفي سبيل هذه الاهداف جملة ، قتلوا (بدغيش ، وآقسنقر ، ومودود وجناح الدولة ، ونظام الملك ، وفخر الملك .. وغيرهم من امراء السلاجقة)

---

(١) كرد علي ج ١ ص ٢٦٥ .

كما فتكوا (بالخليفتين العباسيين الراشد والمسترشد ، وحاولوا اغتيال صلاح الدين الايوبي) . وقد نالوا من الصليبين كثيراً ، كما نالوا من المسلمين ، وهذا ماحدا بالمؤرخين للتأكيد بأن المحور الاعظم الذي تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك والسلطان ، « واعتبارهم جمعية سياسية ترمي الى اقامة ملك » (١) .

وهذه الفرقة ، التي دوخت الملوك ، وأنزلت الرعب في قلوب الصليبين ، نظمها الحسن بن الصباح . واستخدمها في سبيل انجاح سياسته ، ولم يتورع في تحقيق اغراضه السياسية ، عن قتل العلماء والوزراء من اتباع المذهب السني (٢) ، ولعل هذه الاعمال الخارقة ، وما امتاز به افراد هذه الفرقة من الشجاعة والاقدام ، اوهمت البعض بأنهم يتعاطون الحشيش ، فيمتلئون شجاعة ، ويفقدون وعيهم وسيطرتهم على اعصابهم ، فيندفعون للقيام بتلك الاعمال المدهشة .

ولا ريب ان أولئك المؤرخين ، وقد اخطأوا الرأي ، فمالوا مع الهوى وصدقوا الاشاعات . دون ان يدور بخلدهم ان الايمان الراسخ ، والاعتقاد المتين بعصمة الأئمة لدى هذه الطائفة ، يوجب على المريدين التضحية بكل شيء في سبيل مرضاة الامام . ولو كلف المؤرخون انفسهم بعض الجهد ، في دراسة العقيدة الاسماعيلية لأدركوا على الفور ان « طاعة الامام فرض وسبيل النجاة ليوم الفصل والعرض » (٣) .

وقد اقتبس شيوخ الجبل في مصياف ، تنظيم فدائيتهم ، عن الحسن بن الصباح .

---

(١) كرد علي ج ١ ص ٢٦٥

(٢) مصطفى غالب ص ١٩١ و كرد علي .

(٣) هذا ماورد في كتاب احد الأئمة ، انظر غالب ، ص ١٩٥ .

وبذلوا عناية كبيرة في تدريب افرادها في مدرسة الدعوة في الكهف(١) ، وعملوا على تلقين افرادها ، منذ الصغر ، مبادىء الدعوة وأصول العقيدة ، وجهدوا في تنشئة جيش الفدائية على الطاعة العمياء والانقياد الكلي لارادة شيوخ الجبل ، دون ان يهملوا تعليمهم اصول الجدل والمناقشة ودراسة الفقه الاسلامي . كما دربوهم على استعمال المكاتبات السرية في اتصالاتهم الداخلية والخارجية . وابلاغ شيخ الجبل عما يجري في امارته وخارج الحدود ، عند الصليبين في الغرب والمسلمين في الشرق . لاعداد العدة ومجابهة الطوارىء ببصرة وحكمه .

ومن غريب الامور ، أن شيوخ الجبل في مصياف ، ادركوا قيمة الجاسوسية الدولية ، وفطنوا لأساليبها فعملوا على تمرين الفرقة الفدائية على مختلف انواع الاسلحة ، وضروب القتال ، كما لقنوا افرادها العلوم والفلسفة وعلوم لغات اهل البلاد المجاورة ، وفهم مذاهبهم واديانهم . فبلغوا بذلك درجة عظيمة من المهارة ، وشكلوا شبكة خطيرة ، واسعة الاطراف تحيك المؤامرات ، وتنفذ الاغتيالات بنجاح عجيب ، وتحمي الحصون والقلاع وتسهر على الامن والنظام ، آناء الليل واطراف النهار . وتبلغ شيخ الجبل المتربع على سدة الحكم ، عن كل ما يجري ، وتنفذ له ما يشاء وبواسطة هذا الجيش الصغير فرض شيخ الجبل ارادته على الجميع .

٧ - قلاع الدعوة . اقتضت ضآلة المساحة ، وقلة الأمن في مدن العصور الوسطى ، أن يكون لكل مدينة قلعة لحمايتها من المعتدين والدفاع عنها من

---

(١) انظر عارف تامر ، سنان وصلاح الدين ؛ ومناقب راشد الدين (مخطوط) . م . ل

المغيرين ، كذا كان الحـــال بمصياف وغيرها من قرى جبل البهرة ، حيث جرت العادة حتى أواخر العصر الوسيط ، أن تنفق المدينة ـ أية مدينة على تقدير المؤرخ بيرون ـ ما لايقل عن خمسة أثمان ميزانيتها العامة ، في حفظ الأسوار وإعداد المعدات للحرب والدفاع ، لأن الغارات لم تنقطع ، بسبب الخلات على الحدود الادارية ، أو بسبب العداوات القديمة ، والضغـــائن المتوارثة . حتى أصبحت الجيرة بحد ذاتهـــا من أقوى العوامل في إثارة الاحقاد والضغائن الهاجعة (١) .

وحسب الظروف أنهـــا دفعت حملة الدعوة الاسماعيلية المضطهدين ، الهاربين من مقاتل دمشق وفلسطين ، ومجازر العراق ومذابح حلب وفارس ، حسب الظروف ، أنها دفعت بهم الى الاستقرار في جبـال البهرة ، الواقعة بين عدويين لدودين ، أسهم كلاهمـــا بنصيب وافر في القضـــاء على دولة الفاطميين . فلم يكن وضع الاسماعيليين العاصف الا أن سعر ناراً كانت لهباً في القديم ، بدليل أنها حولت الفدائية الى منظمة خطيرة غداة دخولها النضال وحرصت على امتلاك الجبل الحصين والقلاع التي تتوجه معتمدة على فدائيتها الرهيبة وقلاعها المهيبة ، وشيوخها الدهـــاة ، في شق طريقها نحو العظمة والظهور . وغدت دولة مصياف بفضل هذه العوامل عنصراً هاماً في السياسة الدولية ، وأصبح شيخ الجبل ، سيد القلاع والحصون شخصاً مرموقاً وشبحاً مرعباً ، مجرد ذكره يثير رعدة الهلع والخوف في أوصال ملوك عصره ، الصليبيين والمسلمين معاً .

وقد تمكن شيخ الجبل ، باستيلائه على منطقة جبل البهرة الحافلة بالقلاع

(١) فيشر ، تاريخ أوربا في العصر الوسيط ج ٢

البيزنطية من تأمين الدفاع عن دولته ، وصيانه أتباعه ومواطنيه من خطر الغزوات التي شنها جيران المنطقة الاقوياء ، وتراجعوا يجرون أذيال الخيبة. بعد أن وقفت بوجههم قلاع الدعوة ، وصمدت لهم صمود الراسيات ،

ومما يلفت النظر أن الدعوة الاسماعيلية كغيرها من الحركات ، لم تلجأ للحصون والقلاع لحماية أنصارها الا عندما أعوزها الجيش الجبار الذي امتلكته في أيام عزها الغابر ، ثم تصومت تلك الامجاد تصرم الدول على مرور الايام ، فجاهد الاسماعيليون جهاداً عنيفاً لامتلاك الحصون والقلاع ، حتى بلغ عدد قلاعهم في زمن الظاهر بيبرس « من طرابلس الى صيدا الى حلب حتى حوران ، سبعون قلعة ، أهمها قلعة صهيون (١) .

ولا يغرب عن البال ، أن القلاع التي لعبت الدور الاول في هذا العصر ، هي قلاع الدعوة الاسماعيلية المنتشرة في جبل البهرة . « وهي سبع قلاع ، لاتسامى منعة ولا تزاحم حصانة » (٢) . ويجعلها وليم الصوري المؤرخ الصليبي ، عشر قلاع . يضيف اليها عارف تامر قلعة أخرى وهي . مصياف المرقب ، القدموس ، الخوابي ، الكهف ، صهيون ، العليقة ، المينقة ، أبو قبيس ، المهالبة ، الرصافة (٣) .

ولا يسعنا في هذا المجال الا الإشارة إلى أن القلاع ، المعروفة لدى المؤرخين بقلاع الدعوة الاسماعيلية ، والتي الفت فيما بينها أمارة شيخ الجبل

---

(١) كرد علي الخطط ، ج ٦ ص ٢٦٢

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٤٦

(٣) عارف تامر سنان وصلاح الدين ص ٣٢

لم تكن تشمل قلعة المرقب (١) ، ولا قلعة صهيون ، كما يقول السيد عارف تامر . إذ كانتا تابعتين للصليبيين حتى جاء صلاح الدين ، وانتزع صهيون وتسلمها بالأمان على شروط تشابه شروط تسليم القدس سنة ٥٨٤ هـ (٢).

بيد أن هذا لا ينـاقض ما ذكرناه سابقاً ؛ من استيلاء الاسماعلين ، على سبعين قلعة في بلاد الشـام ، تعيش في ظلال الصليبين والايوبيين في وقت واحد . ولعل حصنا صهيون والمرقب ، خضعتا للصليبيين بعد معـارك وخلافات مع الاسماعيليين . وتعرض هذان الحصنـان بسبب موقعهما على الحدود المتاخمة للصليبيين لأطماع هؤلاء . كما تعرض حصن أبوقبيس لنفس المصير لوقوعه على الحدود الاسمـاعيلية ـ الايوبية فأصبح تابعاً لدولة صلاح الدين الايوبي .

وبعد وفاة صلاح الدين ، قسمت مملكته بين أفراد البيت الايوبي ، فملك عثمان بن الداية ، حصن شيزر وحصن أبي قبيس . واستولى ناصر الدين ابن كورس على حصن صهيون وحصن برزية (٣) سنة ٥٨٩ هـ .

ويذكر الاستـاذ كرد علي : أنه كان بأيدي الاسماعيليين بالشام ثمان قلاع سنة ٦٦٢ هـ ، وهي قلعة الكهف ، والعليقة ، والقدموس ، والخوابي ، والمينقة ، ومصياف ، والرصافة ، و« والقليعة» (٣) ، وهذا يؤكد رأينا في مستهل هذا الحديث ، من ضياع بعض القلاع الاسماعيلية بمرور الزمن وضمها للدول المجاورة ، في الفترة السابقة لتأسيس دولتهم ، وفي الفترة التي تلت

---

(١) كرد علي ، الخطط ج ٢ ص ٨١

(٢) كرد علي الخطط ج ٢ ص ٦٤

(٣) أنظر كرد علي ، الخطط ج ٢ ص ٧٤ لايذكر « أبو قبيس »

عصر القوة . والواقع أن الاسماعيليين بسطوا سلطانهم ونفوذهم على هذه القلاع بالتدريـــج ، كما خسروها بنفس الطريقة ، عندما اعتراهم الوهن ، وانفصمت بينهم أواصر الوحدة .

شرع الاسماعيليون ينتشرون في هذه المنطقة ، منذ زمن متقدم ، يرقى الى القرن الثاني للهجرة ، وتحول دعـاتهم الى قلاع هذه المنطقة ، وقراها ودساكرها ، يبثون الدعوة بهدوء وتكتم ، حتى أشرف القرن الخامس على نهايته ، وطورد الاسماعيليون في العراق وفارس وشردوا . فأخذوا يرجعون الى سورية ، املا بانتجاع بقعة نائية لاينالهم فيها ضغط أو عدوان . ولكن أملهم تبدد وما لبث أهـل حلب ودمشق خـاصة . أن أدركوا خطر الاسماعيليين لتزايد عدد أتباعهم ، واتساع نفوذهم . فدبروا لهم المؤامرات وفتكوا بعامتهم ، حتى قتل في دمشق وحدها: عشرة آلاف كما يقول ابن الجوزي . عند ذلك رمى الاسماعيليون بآخـــر سهم في جعبتهم . فولوا وجوههم شطر جبل البهرة الحافل بالقلاع والحصون البيزنطية (١) . التماساً للأمن والسلام والحرية ، في بقعة حصينة ، مهد لهم فيها دعاتهم منذ زمن طويل ، وكان الاسماعيليون قد تسربوا الى هذه المنطقة منذ قرن . ولكنهم الآن شرعوا في الزحف اليها جماعات جماعات ، همها الوحيد النجاة من ظلم السلاجقة في الداخل ، وعدوان الصليبيين في الساحل .

فنفروا من الشرق والغرب ، وأعملوا الحيلة والذكاء في انتزاع الحصون من أمرائها . فاشترى الداعية أبو الفتح الاسماعيلي حصن القدموس ، من صاحبه ، سيف الملك بن عمرون سنة ٥٢٥ هـ وجعله قاعدة للتوسع والاستيلاء على

(١) Syria , A . fe ddenp175

الحصون والقلاع المجـاورة ، فاحتلوا الخوابي ، والكهف سنة ٥٣٢ ﻫ ، ومصياف سنة ٥٣٥ ﻫ ، والمينقة سنة ٥٤٦ ﻫ . وبذا مكنوا لأنفسهم في جبل البهرة ، وبدأ نجم مصيـاف في صعود ، بينما انحدر نجم « المـوت » نحو الأفول والموت .

وعاصمة قلاع الدعوة هذه ، أصبحت في عهد الدولة الاسماعيلية ، قاعدة شيوخ الجبل ، يرسلون منها أفواج الفدائية ، ويستقبلون فيها الوفود المسلمة والصليبية والبعثـات الدبلوماسيه . كما يتلقون عند أبوابها الغزاة والفاتحين.

وقد حظيت قلعة مصياف بهذا المركز الممتاز بين قلاع الدعوة ، لتوفر الامـكانيات البشرية والاقتصادية ، ولموقعها الستراتيجي ، وهي كالحارس الأمين عند مدخل جبال البهرة التي تغص بقلاع الدعوة ، تتحكم بالممرات الجبلية الذاهبة الى بانياس وطرابلس وتنتصب كالمارد العنيد ، على مشارف حبال البهرة ، لترد عنها عوادي الايام ، وتدفع عنها عواصف الغزو المدمرة وتعود أهمية هذه القلعة لمناعة موقعها اكثر مما تعود لفخامة بنيانها وروعته(١) وكم مرت بها سنابك خيل المغيرين دون ان تنال منها شيئاً ، وبقيت صخرة عصية ، تتكسر على صمودها جحافل الغزاة ، حتى تجنبها الفاتحون فلم يحفزهم الطمع لاحتلالها .

وهذا ما يفسر لنا ، غموض أخبارها ، قبل العهد الاسماعيلي وبعده . فقد تمتعت قلعة مصياف بفضل هذا الموقع بعزلة وحصـانة طبيعية جعلت الحوادث والحروب تدور من حولها ، وتتردد ، خلال اخبار تلك الحروب التي لم تنقطع خلال عدة قرون ، اسماء القـلاع السورية عشرات المرات ،

(١) R . Dussaud . La Syrie Antique

دون ان نجد لقلعة مصياف الا الاشارات العارضة ، والاخبار الضحلة ، التي لاتنقع غلة الباحث الدارس .

ومما ساعد على قيام مصياف بدور الزعامة السياسية في المنطقة منذ القديم بالاضافة لمركزها الحربي الممتاز ، وقوعها في وسط منطقة خصيبة ، غنية بالكروم والخضراوات والزروع ، حافلة بالينابيع . فقد وهبها الله من الجمال والثروة الاقتصادية ، ماجعلها تتبوأ مكاناً مرموقاً بين المدن ، مما اغرى مؤرخينا القدماء كالقلقشندي ، وياقوت وأبي الفداء على وصفها بأجمل الاوصاف والنعوت . « فهي بلدة جليلة ، ولها قلعة حصينة في لحف جبل اللكام (١) ... وبها انهار صغار من اعين ، وبها البساتين والاشجار ، وهي قاعدة قلاع الدعوة » (٢). وما زالت مصياف كعهد الاسلاف بها ، جنة صغيرة يطيف بها سفح مخضوضر ، تتشابك فيه أغصان السنديان والريحان ، وتنبسط كروم العنب والتين ، حيث يعيش القرويون عيشة ريفية مشرقة الالوان .

وكان سكان المناطق المجاورة يقصدون مصياف ، ايام السلم للتجارة والاجتماع ، واوقات الحرب للتحصن والدفاع في العهد الذي نتحدث عنه . وإذ انقضت مهمتها الدفاعية ، بانقضاء العصور الوسطى ، فقد بقيت مصياف البؤرة التجارية الهامة لأبناء المنطقة المجاورة ، يجودون عليها بثمرات الريف لتجود عليهم بثمرات الحضارة المعاصرة .

---

(١) جبل اللكام بالعربية (من السريانية « أوكاما » أي أسود) وهو يعني به هنا جبال النصيرية « البهراء » .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤٦

وكذا جرت المقادير، فتعاونت العوامل الطبيعية، والحربية والاقتصادية على نشوء مصياف وازدهارها، منذ العصور القديمة. واخذت تنمو بمرور الايام فبنيت لها قلعة دفاعية في القرن الخامس للميلاد، على ما نرجح، بناها البزنطيون الغرباء لحماية نفوذهم، وسلطانهم، من نقمة السكان وثورتهم، أو للدفاع عن المنطقة ضد عدوان خارجي عند الحاجة. واصبحت مصياف بعد الفتح العربي، كبقية المدن السورية، جزءاً من الوطن العربي الكبير وفلذة من بلد واسع تشاركه متعة الظفر، وغصة الفشل. وعرفت هذه البلدة لدى الكتاب والمؤرخين، بثلاثة أسماء.

فهي: ١ ـ مصياف، لدى (ياقوت، القلقشندي، النويري، المقريزي ابو الفداء ابن تغري بردي).

٢ ـ ومصياث، بالثاء، لدى (ابن القلانسي، ابن الاثير، ابن سعد، المقدسي).

٣ ـ رمصياب، ومصيات، لدى ياقوت أيضاً (١)، أما مصياب، فقد وردت في الموسوعة الاسلامية باللغة الفرنسية، وهذا خطأ مرجعه، كما نرجح، الى خطأ في قراءة الكلمة العربية، التي تنتهي بتاء ذهبت نقطتاها، فنقلت الى الموسوعة على انها مصياب.

ومن الجدير بالذكر ان ياقوت يضيف الى قوله السابق «ان البعض يسمونها مصياف، غير ان اهل الريف لايزالون يطلقون عليها «مصياد» ويرى فان برشم ان «مصياد» ومصياف قد اشتقتا من لفظة مصيات،

(١) ميشيل لباد، تاريخ قلعة مصياف.

وان هذا الاشتقاق دارج بالعربية (١)، ولكننا نميل لترجيح التسميتين، المتعارف عليها لدى عامة المؤرخين والناس وهما (مصياف ، ومصياد) لأننا نجد لكلمة مصياف معنى يطابق شروطها الطبيعية، ومناخها، وينطوي على فحوى مصيف، الذي تحول الى مصياف، على السنة الناس، ولا نستبعد ايضاً تسمية هذه البلدة بمصياد، لوجودها في منطقة حرجية مشجرة، تؤهلها لأعمال الصيد على اختلاف انواعه، وهذه التسمية ليست جديدة في اللغات السامية القديمة، فقد سميت صيدا بهذا الاسم، لأنها مركز لصيد السمك.

وقد مــرت هذه البلدة بعهود تاريخية متعددة، فخضعت في العهد العربي: للأمويين ثم للعباسيين. ونالت شيئاً من الاستقلال الذاتي عندما أخذت الدولة العباسية بالضعف والانحلال، حتى جــاء سيف الدولة الحمداني وضمها الى دولته فيما بين سنة (٣٣٦ - ٣٥٩ هـ). ثم شملها الحكم البيزنطي، في عهد سعد الدولة بن سيف الدولة الذي سلمها للبيزنطيين بمعاهدة مشينة منذ سنة (٣٥٩ - ٣٨٥). وبعدهــا خضعت للنفوذ الفاطمي في مصر، وللأمراء المستقلين حتى استولى عليها الاسماعيليون سنة (٥٣٥ - ٦٦٨ هـ)، وجعلوا منها عاصمة لدولتهم المستقلة، ومركزاً لنشر دعوتهم وبث فدائيتهم. وبعد انحــلال هذه الدولة، أصبحت مصياف ولاية هامة من ولايات المماليك (٢) وتمتع الاسماعيليون فيهــا بحرية واسعة، واستقلال ذاتي. وأخذ مركزها الاقتصادي يتدهور بمجيء العثمانيين، ثم انتعشت بجلاء العثمانيين، وغدت

---

(١) R. Dussaud . ra syrie Antique

(٢) انظر القلقشندي

مركز منطقة . وظلت حتى الوقت الحاضر ، معقلاً من معاقل الاسماعيليين المشهورة في العالم .

وصفوة القول ، إنه ليصعب على السائح - وهو يجيل طرفه في ريف البهراء الجميل - أن يصور لنفسه ، كيف كانت تلك القلاع التي لم يبق منها الا أطلال موحشة ورسوم دارسة ، قطب الحياة في الاقليم ، وحلقة من حلقات الاجتماع والتدريب والدرس ، ومرقداً للسلام والأمن . ومهبطاً للعيش الوادع تحت رايات شيوخ الجبل ، ماينوف على القرن ، وسط موج الاحداث .

٨ - دور الانحلال (٦٠٠ - ٦٧٠ ﻫ)

كان سنان شيخ الجبل طرازاً من الرجال الذين يعرفون كيف تبنى الدول فتمحي أمام قوتهم جميع العقبات ، وتتلاشى عوامل الانحلال والضعف . لتبرز دفعة واحدة بمجيء خلفائهم ، سيما اذا كانوا دونهم كفاءة ومقدرة . كما حدث في فجر التاريخ الاسلامي . وكما يحدث في كل عصر ومصر . واذ يصبح سنان أكثر سلطة وأنفذ إرادة من أعظم ملوك عصره ، يخلفه ابنه الحسن وأشخاص آخرون ، لايملكون من أسباب الشهرة والقوة مايدفع المؤرخين لتدوين أسمائهم على الاقل ! ؟ .

فلم تنجب دولة مصياف رجلا نظير سنان ، يستجمع صفات الحزم والعقل ، ينشيء الدول بشخصه ويوحد الاعوان ويدفعهم للتعاون ، بمزاياه الخلقية والعملية ، وتأثيره الروحي وإرادته الحديدية . فما لبث عقد التعاون والوحدة الداخلية ، أن شرع بالإنفراط ، وأخذت أواصر التآزر والإلفة تنحل . عندما انصرف خلفاء شيخ الجبل الاكبر سنان ، عن خطته الرامية

الى توحيد الصف الداخلي لمجابهة الخطر الخارجي . بيد أنه لم يكن بقدورهم أن يفعلوا أكثر بما هيأته لهم ظروفهم وإمكانياتهم ، لأن التعاون والاتحاد ليس من طبيعة العصر الوسيط ، والنظام والهدوء أمور غريبة ، قد تفرضها وتوطدها شخصية نادرة ، كشخصية صلاح الدين أو سنان ، ولكن ذلك بدوم أجلا ، ويرتبط بحياة تلك الشخصيات في بقائه وفنائه .

ومن الجدير بالذكر أن خلفاء سنان ، تمكنوا من استغلال الظروف الدولية ، في الإبقاء على استقلالهم ، وعاشوا أكثر من نصف قرن ، ينعمون بعزلتهم وحريتهم ، بينما أخذت الفوضى تنشب في مملكة الناصر صلاح الدين في الشرق بعد وفاته ، وينصرف خلفاؤه لمنازعاتهم انصرافاً يشغلهم عن متابعة العمل العظيم الذي بدأه صلاح الدين وتأخذ على الجانب الغربي لدولة مصياف ، ممالك الصليبيين نصيبها من أمراض العصر ، القمة على الشقاق والتفرق والتخاصم وفيما يعكف جيران مصياف على الشقاق والتنازع ، تمضي دولة مصياف في طريق خاص ، لا تعكر حياتها الا حملات متقطعة متباعدة ، يشنها الصليبيون في الغالب ، وخلافات داخلية عادية .

ويركن شيوخ الجبل في نهاية هذا الدور ، الى الهدوء ويميلون لإهمال مقومات الحياة في دولتهم ، تلك المقومات التي اعتمدت عليها مصياف في صيانة استقلالها خلال الايام السالفة ، وأهمها الفدائية ، والحصون ، وسياسة شيوخ الجبل الماهرة .

وعلى الرغم من موادعة الايوبيين في الشرق ، وفرض السلام بقوة السيف على الفرنجة في الغرب في أوائل هذا الدور (١) ، برغم ذلك كان الامل كبيراً باستمرار هذه الدولة ، حتى بعد زوال التوازن الدولي بين قوة المسلمين

(١) أنظر بحث السياسة الخارجية في الفصل الثالث

والفرنجة والافادة من منازعاتهم ، في البقاء . وكان من الممكن أيضاً المحافظة على الاستقلال مدة أطول ، لولا تنازع شيوخ الجبل في نهاية هذا العهد وتعاونهم مع خصـوم دولتهم ، وإغفال العمل السياسي المنظم وتدريب الفدائية ، وتحصين الحصون .

وكل مافعله أبو الفتوح محمد ، تجـاه الخطر المغولي الزاحف من مشارق الامبراطورية العربية ، أن بنى سوراً هزيلاً (١) يحيط بمصياف لحمايتها . ولما بلغ الجيش المغولي تخوم مصياف ، هدد شيخ الجبل وأعوانه بمصير إخوانهم في فارس ، وخليفة بغداد في العراق ، فعمد بعض أعوان شيخ الجبل ، كما يقول ابن ميسر ، الى تسليم أربع قلاع ـ بما فيها مصيـاف ، الى التتر . فلما غلب التتر أمام الجيوش المصرية السورية . استعاد القلاع شيخ الجبل وقتل أصحابه الذين سلموها (٢) ، ولكنه شعر بالوهن يسري في أوصال دولته وبالنزاع يمزق وحدتها . وأدرك أن الظاهر بيبرس خليفة قطز ، ان يحجم عن احتلالها بعد تراجع التتر ، وانحلال الفرنجة . فجنح للسلم وقبل بدفع جزية سنوية قدرها مائة الف درهم . وانتهى بذلك دور مصياف ، في التاريخ كدولة مستقلة تلعب دورها في السياسة الدولية ، لتغدو ولاية مستقلة من ولايات المماليك .

---

(١) دون هذا الخبر على باب من أبواب السور ، ويذكر صاحب الدليل الازرق أن بناء السور تم سنة ١٢٤٩ م - ٦٤٧ ه (أي قبل وصول التتر الى سورية بعشرة أعوام) .

(٢) كرد علي ج ٢ ص ١١٩

الفصل الثالث

السياسة الخارجية

أ ـ **الاهداف** : مما يساعد على فهم السياسة الخارجية للدول ، معرفة أعراضها العامة ، التي تتأثر بالأوضاع الجغرافية ، والاقتصادية ، والتاريخية . فلكل دولة في التاريخ اهدافها الخاصة المتولدة من ظروفها الجغرافية ، وحياتها الاقتصادية ، وتطورها التاريخي والروحي عبر الزمن . وفي سبيل توضيح طبيعة العلاقات السياسية لدولة الاسماعيليين في مصياف ، وما يطرأ عليها من تحول وتغيير ، يجب ادراك الاهداف الاساسية والعوامل المسيطرة في توجيه دفة السياسة الخارجية ورسم خطوطها العامة ، كما ينبغي فهم الشواغل السياسية . والنوايا التوسعية لجيرانها ، لأن المواقف السياسية تتغير وترتبط بما يتخذه الخصوم والاصدقاء ، من مواقف تجاه الدولة المعنية .

١ ـ لقد جعل شيوخ الجبل عامة ، وسنان خاصة ، من مصلحة الاسماعيليين وكرامتهم مبدأ عاما وهدفا رئيسيا لا يحيدون عنه . ونصبوا انفسهم حماة لهذا الهدف ، الذي يتلخص في صيانة الاسماعيليين وحماية حدودهم من كل عدوان ، وسخروا جميع الوسائل لتأمين هذا الهدف ، واستغلوا جميع القوى لخدمة هذا الغرض : فرمموا الحصون ، وجندوا الشباب ، ونظموا الفدائية

فهادنوا الصليبيين تارة ،والمسلمين تارة اخرى . وخاصموا الدولتين في كثير من الاحيان كل ذلك من أجل بقائهم واستمرار كيانهم .

ولعلنا نلاحظ ان تحول العلاقات السياسية وتطورها مع الزمن، ليست صفة خاصة بهذه الدولة الصغيرة القوية ، التي اتهمت بالمروق ..وماشابهه لانها تعاونت مع الصليبيين (١) فلقد تعاون مع الصليبيين حتى ابناء صلاح الدين بعد وفاته (٢) ومن قبل ذلك ، انحرف كثير من أمراء السلاجقة واستعانوا بالصليبيين ضد خصومهم في الداخل (٣) ومتى كانت العلاقات السياسية خاضعة للمثالية؟ بل و كيف لانضع الامور في مواضعها من الزمان والمكان والحياة؟ وهل ننصف التاريخ والواقع عندما ننحي باللائمة على فئة مضطهدة تتعاون مع الدخلاء وننسى تعاون غيرها في نفس الوقت ؟!! ان الكامل ابن اخي صلاح الدين يسلم القدس لملك صقلية مقابل مده بالعون ضد ابناء عمه الايوبيين (٤) .

ومما يسترعي الانتباه ، ان شيوخ الجبل ، أدركوا قيمة وضعهم الجغرافي . وتوصلوا الى الاعتقاد ، بضرورة المحافظة على التوازن الدولي، بين الدول المتحاربة ، وبذلوا جهوداً كبيرة في هذا السبيل ، جعلهم يتبوأون مكاناً مرموقاً في السياسية الدولية في الشرق العربي ، على الرغم من صغر

(١) انظر ابن تيمية . والاستاذ كرد علي في كتابة خطط الشام

(٢) انظر كرد علي ج ٣ ص ١٠٣ : انظر فيليب حتى ج ٢ ص ٢٤٢ انظر ابن الاثير، وابي الفداء .

(٣) انظر الخطط ج ٢ ص ١٢ وغيرها .

(٤) ابو الفداء ج ٣ ص ١٤٨ وابن الاثير ج ١٢ ص ٣١٥ .

دولتهم ، وقلة انصارهم . وهيأهم لقيادة دولة مستقلة آمنة ، على مقربة من من القوى المتصارعة . وكان هم هذه الدولة الوحيدهوالتمكين لأنصارها في جبال البهراء ، واتاحة فرص العيش ، والبقاء اعزة كرماء مهما كانت الوسائل ومهما تنوعت العلاقات وتطورت . وكان إدراك شيوخ الجبل ،في محله ، فعندما زال التوازن الدولي وانتصرت القوى الاسلامية على الصليبية، زال استقلال الاسماعيليين وانهارت دولتهم وشيكاً على يد بيبرس .

ومن ابرز شيوخ الجبل وأبعدهم أثراً في السياسة الدولية ، سنان راشد الدين ، والحق يقال : يندر ان يوجد بين الحكام من افادمن وضعه ،وصلابه عقيدة اتباعه ، كما أفاد سنان . الذي نظم الفدائية تنظيماً دقيقاً مكنه من فرض سياسة القوة ، وجند الاتباع للدفاع عن الحدود ، وحصن القلاع وشحنها بالحرس . ولم يختلف عن بقية الشيوخ في تقديم مصلحة اتباعه على كل مصلحة اخرى . وقرن وسائل الارهاب ، والقوة ، والعنف ، بدبلوماسية ماهرة ، قوامها الضرب بشدة على أقوى ملوك العصر ، والتلويح بالخناجر المسمومة. مع الميل الى المسالمة والمهادنة ،ليبقى سيد الموقف يفرض شروطه دون ان يذعن او يستسلم لسلطة جيرانه الاقوياء وتمكن بهذه الوسائل من ارغام الصليبين والمسلمين ، على مهادنته وكسب وده ، دون ان يخسر الا نفراً قليلاً من فدائيته . وعدداً ضئيلاً من جنده لا يقارن بمعشار ما كانت تخسره الدول لصيانة حدودها وحفظ هيبتها .

٢ ـ ويمكن القول ان سياسة نور الدين وخلفه صلاح الدين .. ثم المماليك كانت تهدف الى توحيد الجبهة الاسلامية المفككة، وتوحيد الامارات المتنازعة

للوقوف في وجه الغزو الصليبي وطرد المعتدين . ولذا حاول نور الدين وصلاح الدين ، احتلال قلاع الدعوة وعندما شعرا بضرورة بقائها وعجزا عن اخضاعها ، حالفاها ضد العدو المشترك .

٣ ـ اما الامارات الصليبية في الغرب ، فقد كان همها : تناحر الدول الاسلامية ، والابقاء على حالها من التنازع والخصام والتفكك ، وتشجيع الخصومات ، والافادة من ذلك ، في تعزيز سلطانها . ومن هنا اهتمت بمحالفة الاسماعيليين واسترضائهم بعد ان كلفتها خصومتهم ثمناً غالياً ، من اعناق ملوكها وأمرائها .

ب ـ علاقة الاسماعيليين بالدول الاسلامية :

١ ـ علاقتهم ببني منقذ : منذ شرع الاسماعيليون باحتلال قلاع جبل البهرة ، بدأوا يفكرون بالاستيلاء على مصياف قاعدة القلاع ، وأهمها على الاطلاق . فدبروا حيلة ، مكنتهم من الصعود الى القلعة ، وانتزاعها من مملوك بني منقذ أصحاب شيزر سنة ٥٣٥ هـ (١) ، ١١٤١ م . وعملوا بعد احتلال هذا المركز الممتاز في بسط سلطانهم ، على حساب جيرانهم . وقد حفزهم على العمل ضد بني منقذ ، الضعف الذي حلّ بهم . فشنوا عدة حملات عدائية قوامها الاعداد الوفيرة من الفدائيين الذين توجهوا الى شيزر عاصمة بني منقذ لتقصي أخبارهم ، ومعرفة نواياهم .

ولا شك ان السبب الاول في اذكاء نار العداوة بين بني منقذ والاسماعيليين هو اغتصاب مصياف من بني منقذ ، ومحاولة هؤلاء الانتقام من اتباع

(١) ابن الاثير ج ١٠ ص ٢٤٠ .

الاسماعيلية في شيزر ، والفتك بهم كلما سنحت الفرصة (١). ولكن الظروف كانت في جانب الاسماعيليين ، فقدمت لهم خير عون، بانتهاء دولة بني منقذ الى الخراب، اثر زلزال خطير ، هدم عدداً من القلاع السورية، ومنها شيزر التي مات بين انقاضها المنقذيون ، فبادر الاسماعيليرن لاحتلالها عام ٥٥٢ هـ وتلا ذلك مجيء سنان (٥٥٨ هـ) الذي حافظ على شيزر حتى انتزعها نور الدين زنكي ٥٦٤ هـ .

٢ - **الاسماعيليون والزنكيون** : اذا كانت العداوة بين بني منقذ ، والاسماعيليين في مصياف ، وليدة اطماع الاسماعيلين في التوسع ، واحتلال املاك جيرانهم . فقد كانت الخصومة بين نور الدين زنكي ، وسنان راشد من نتائج سياسة نور الدين زنكي ، الرامية الى توحيد الجبهة الاسلامية، وضم الامارات السورية تحت لوائه ، لطرد القوى الصليبيه .

ومن اجل ذلك بدأ بالعمل لاحتلال قلاع الدعوة ، وضمها الى املاكه فنشب نزاع بينه وبين اتباع سنان في شيزر ، وانتهى النزاع باخضاع شيزر واقتطاعها من جسم دولة مصياف ، دون ان يتمكن شيخ الجبل من تجنب هذه النتيجة (٥٦٤ هـ) (٢) لانفراد قلعة شيزر في وسط املاك نور الدين، المحيطة بها في الشمال والجنوب ، وفقدانها الميزات والخصائص التي تتمتع بها قلاع الدعوة في جبل البهرة ، من تحصن ومناعة ، طبيعيين . ولبعدها عن مركز قلاع الدعوة .

---

(١) انظر لاعتبار لأسامة بن منقذ

(٢) مشيل لباد ، تاريخ قلعة مصياف ، ص ١٧

ولم يكن خطر نور الدين في نظر الاسماعيليين ليقتصر على احتلال شيزر بل تجلى هذا الخطر بصورة واضحة ، عندما تمكن نور الدين من توحيد بلاد الشام ، ومصر ، وقضى على الدولة الفاطمية ، بفضل نائبه صلاح الدين . وزحف على تخوم بلاد البهرة اكثر من مرة بين (٥٢٣ هـ - ٥٦٤ هـ) دون ان ينال منها . ولكنه اشعر الاسماعيلين بخطر هجوم مفاجىء ، وأثار مخاوف شيخ الجبل .

ولم يكن بمقدور سنان ، تجنيد جيش يكفل له صد نور الدين وايقاف زحفه ، فلجأ لإرسال أحد فدائيته الشجعان فتمكن من وضع خنجر مسموم ورسالة وعيد وتهديد ، عند رأس نور الدين (١) تتضمن إنذاره بأسوأ العواقب إذا فكر بالتوغل أكثر من ذلك في بلاد الاسماعيليين ، وعمد سنان بنفس الوقت ، للتفاوض مع الصليبين لدرء الخطر المحدق به من الشرق ، فأرسل الى أما لاريك ملك القدس وفداً يعرض عليه مشروع تحالف ضد نور الدين ملمحاً بميل اتباعه لاعتناق النصرانية طالباً إلغاء الضرائب التي فرضها فرسان الهيكل على بعض القرى الاسماعيلية المجاورة لهم (٢)

فلقيت وفود شيخ الجبل ترحيباً كبيراً من أمالاريك ملك الصليبيين وشجع هذه البادرة الجديدة للافادة منها في درء خطر دولة نور الدين النامية بيدان فرسان الهيكل حرصاً منهم على الجزية عمدوا الى قتل اعضاء الوفد (٣) الامر الذى لن ينساه سنان ما دام حياً . ويبدو من هذا ، أن المصالح

---

(١) r . runciman , vol 3

(٢) r . Grosset , Hist oire dera Croisades

(٣) حتى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٧

السياسية وحدها هي التي ربطت بين سنان واماالاريك ضد خصم مشترك وهذا التصرف يبرر قول بعض المؤرخين أن المحور الاعظم الذي تدور عليه الاسماعيلية هو مسائل الملك والسلطان (١) مما دفع بعض الكتاب كابن تيمية قديماً للتهجم الشديد عليهم دون التوصل لفهم حركتهم .

٣ ـ **سنان وصلاح الدين** : ولعل نور الدين فكر بالإنصراف عن فتح قلاع الدعوة بنتيجة هذا الانذار ، ولانشغاله باخماد الفتن الداخلية . وبعد وفاته ٥٦٩ هـ تزعم الجبهة العربية الاسلامية في سورية ومصر الناصر صلاح الدين الأيوبي فتابع سياسة سلفه الرامية الى توحيد القوى العربية الاسلامية ضد الصليبيين . وكانت اسباب النزاع بينه وبين سنان كثيرة يمكن ايجازها بعبارات قليلة .

ولقد ألفى سنان أن الايوبيين في الشرق ، يهددون دولته ، تهديد الصليبيين لها في الغرب . فعكف على معالجة المشاكل الناجمة عن قوة صلاح الدين التي بدأت تحدث اضطراباً في ميزان القوى الدولية ، قد يطيح بدولته الصغيرة ، سيما بعد ما لمس سنان ، ومن ورائه الاسماعيليون ، أن صلاح الدين ، لم يتورع عن الفتك بالفاطميين بمصر وثل عرشهم ذي الجلال في قلب عاصمتهم . فكان ذلك إنذار لسنان الاسماعيلي بما سيحل به ، اذا وقف مكتوف الايدي تجاه حاكم عظيم جريء . لا تأخذه شفقة ولا رحمة في مقارعة الخصوم ، ويفضل سياسة الحزم والشدة ، عندما يقتضي الأمر ذلك فيقتل الأمرة الفاطمية ، ويجهز على آل الخليفة الفاطمي العاضد ، وكانوا

---

(١) كرد علي ج ١ ص ٢٥٧

أحد عشر ولداً ، وأربع بنات ، وأربع زوجات ، وأقارب آخرون يربو عددهم على ١٧٠ شخصاً (١)

حز الألم في نفس راشد الدين سنان، وشعر بالخطر ، فشرع يعد للامر عدته . بما أوتي من ذكاء وبصيرة . وسلط على المشاكل التي واجهته قدراً من عبقريته كفيلا بوقف الخطر ، وحل المشاكل أوفق الحلول .

فاعتبر نفسه وريث دولة الفواطم في القاهرة ونهض بعبء الدفاع عن آخر ارث لها في الدنيا بحزم وعزم . فاختار طريقة الضرب العنيف في الغرب والشرق حتى حول خصومه بحد السيف الى أصدقاء ، وتحدى بفدائيته وقلاعه أعظم ملوك العصر فقذف بهم في حلوق جيرانه حتى أرغمهم على مسالمته فرفعته تلك المواقف الجريئة من ساطع المجد الى سامق العظمة والسلطان

وهكذا شهر على صلاح الدين سلسلة من الاغتيالات المروعة ، وانتهت بصلح على جانب كبير من الصدق والمتانة، بدأت تلك الاغتيالات والتهديدات في القاهرة عقب القضاء على الأسرة الفاطمية ، اذ أوفد سنان شيخ الجبل أحد فدائيه الامناء المخلصين المدعو (حسن الاكرمي) الى القاهرة وأمره بتهديد صلاح الدين ، فتمكن هذا الفدائي من دخول القصر الملكي والوصول الى حجرة رقاد السلطان صلاح الدين الايوبي ، فوجده غارقاً في احلامه يغط في سبات عميق ، فترك له خنجراً مسلولاً، منطعاً بالدم ، بقرب الوسادة كما ترك بطاقة كتب عليها «إعلم ايها السلطان المغتصب العاتي .. إنك وأن أقفلت الأبواب ، ووضعت الحراس ، لا تستطيع أن تنجو من القصاص ومن انتقام الاسماعيلية . أراك قد بالغت في القحة واستبديت وقتلت ، وظلمت

(١) مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة . ص ٢١١

وسلبت ، دون ان تحسب حساباً . لشيخ الجبل الاسماعيلي .. إننا ننذرك لتصلح من سيرك . الخ » (١)

ولكن سناناً أحجم في رأينا ، عن مقتل صلاح الدين هذه المرة ، لبعده عن مصياف ولأنه وجد ، أن من الخير له ولدولته ، بقاء صلاح الدين خليفة لنور الدين في حفظ التوازن الدولي . ومتى اشتد خطره ، أمكن اغتياله ، كما أدرك سنان أن إغتيال صلاح الدين لا يؤدي إلى الغرض المنشود بل قد يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه من هجوم صليبي خطير ، كما أن خلفاء صلاح الدين قد لا يختلفون عنه . فأرجأ تنفيذ الاغتيال حرصاً على مصلحة دولته مكتفياً بالتهديد والوعيد

ولكن موقف سنان يتغير بمجيء السلطان صلاح الدين إلى سورية ، ويتبدى الخطر ماثلاً ، عندما يحتل المناطق المتاخمة لدولة مصياف ، فيضم حمص ثم حماه ، ويمر بجحافله المهيبة من أمام مصياف ، تدفعه لهفة حارة لتوحيد الجبهة السورية المصرية . وهنا يلجأ صاحب حماه عز الدين جرديك للاستغاثة بسنان (٢) فيقدم له ضياعاً واموالاً مقابل صد صلاح الدين عن حماه ولكن سرعة الحوادث تقضي على هذا المشروع بالفشل وينتهي أمر حماه بالسقوط على يد السلطان العظيم ، ليتوجه بعد ذلك الى حلب ، مقر الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي ، ومربيه سعد الدين كمشتكين . ويضرب عليها الحصار ليرغمها على التسليم ، فلا تجد مهرباً

---

(١) غالب ص ٢١٢

(٢) كرد علي ج ٢ ص ١٥ وابن الاثير .

من التسليم ، أو الاستغاثة بسيد قلاع الدعوة فى جبال البهرة ، وخصم صلاح الدين العنيد . وقد فضل سعد الدين كمشتكين كما يروي كثير من المؤرخين ارسال الاموال الطائلة الى سنان لقتل صلاح الدين . فبعث سنان جماعة من فدائيته لاغتيال السلطان صلاح الدين ، وقد غدروا به بينما كان يحاصر حلب ، وانهالوا عليه ضرباً وطعناً فجرحوه وكادوا يجهزون عليه لولا الزردية التي كان يرتديها (١) .

ثم أغار صلاح الدين على بعض القرى الاسماعيلية في جهات حلب سنة ٥٧١ هـ وضرب بزاعة واعزاز ، فوثب عليه فدائي وطعنه بسكين في رأسه ، فجرحه جرحاً بليغاً . وتمكن أخيراً جنود صلاح الدين من القبض على هذا الاسماعيلي وتقطيعه ارباً ، فهجم عليه فدائي آخر وضربه بخنجره عدة ضربات ، فألقي القبض عليه واعدم فوراً . وعاد السلطان صلاح الدين مذعوراً ، والتجأ الى خيمته ، وتشدد في فرض الحراسة والحيطة ، خشية الاغتيال (٢) . وصمم على الثأر من مقدم الاسماعيليين في مصياف .

وانتهز صلاح الدين فرصة صلحه مع الزنكيين في الشمال ، ليشرع في تنفيذ خطته الهادفة الى دمج الامارات الصغيرة في دولة قوية كبيرة ، ولينتقم من شيخ الجبل المقيم في مصياف . وهكذا قصد السلطان صلاح الدين ، مصياف عاصمة قلاع الدعوة ، ومقر شيخ الجبل سنان سنة ٥٧٢ هـ . فزحف بجيشه الكبير الى مصياف ، وأقام على مقربة من سورها ، أمام

---

(١) كرد علي ، ج٢ ص ٥١ ؛ وابن الاثير ؛ وابن القلانسي .. الخ .

(٢) غالب ص ٢١٢ ، كرد علي ج ٢ ص ٥٣ .

قلعتها المهيبة ، الرابضة عند مدخل البلدة ، كالحارس الامين ، تتلقى بصدرها الصلد هجمات التدمير . يرشقها بها صلاح الدين ، وينزل بها وابلا من قنابل مناجيقه ، فيخلف أضراراً فادحة (١) .

واشتد بالناس أذى الحصار ، وبدأت غيوم الشك والخوف تلوح في الافق ، لأن الناصر صلاح الدين ، لم يغالب خصما الا غلبه ، ولم يحاصر قلعة الا فتحها ، وكان راشد الدين سنان يتجول في القرى (٢) ، يتفقد أمرها ، ويعدها لليوم الفاصل والمعركة الحاسمة ، عندما بلغه أمر الحصار الذي ضربه صلاح الدين . فبادر على الفور الى قمة جبل مشهد ليرقب جيش صلاح الدين فلما علم بذلك السلطان ، أرسل وفداً من خمسين رجلا الى سنان ، لمفاوضته على التسليم . فاحتقروا شأن سنان في بادىء الأمر ، ولكنهم أدركوا بعد قليل مايتمتع به الرجل من قوة نفسية خارقة ، وشجاعة نادرة ، فجنحوا لمجاملته واحترامه وسلم اليه رئيس الوفد « محمد الكردي » رسالة من صلاح الدين جاء فيها : « من الملك المظفر الناصر ملك مصر ، الى سنان زعيم الاسماعيلية في بلاد الشام ، إعلم ياسنان أنك وإن أغلقت أبواب مدينتك في وجهي ، فإنك لا تقدر أن تنجو . . . الخ » .

فرد عليه سنان برسالة مع الوفد المفاوض ، « وقفنا على تفصيله وجمله ، فيا للعجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، ولقد قالها قبلك قوم آخرون فدمرناهم . وما كان لهم ناصرون (٣) وما صدر من قولك في ضرب العنق

---

(١) ميشيل لباد ص ١٨

(٢) مخطوط اسماعيلي (مناقب راشد الدين)

(٣) عارف تامر ، سنان وصلاح الدين

فالليل وما وسق ، لتركبن طبقاً عن طبق كالباحث عن حتفه بظلفة (١) .

وتزالت بعد ذلك المفاوضات القائمة على التهديد والتهويل . يحاول بها صلاح الدين إرهاب سنان دون طائل ، فيرد عليه سنان بكتاب يظهر ما يكنه من استهانة لشأن أعظم ملوك العصر وفيه يقول :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه

قام الحمام الى البازي يروعه واستيقظت لأسود البر أضبعه

أضحى يسد فم الافعى باصبعه يكفيه ماقد تلاقي منه إصبعه (٢)

لو أن عمرك حبلا أنت ماسكه فسوف تعلم يوما كيف نقطعه (٣)

ثم أرسل كتاباً آخر ملىء بالتهديد حافل بالوعيد والمفاخرة يقول فيه :

« بنانلت هذا الملك حتى تأثلت بيوتك فيها واشمخر عمودها

فأصبحت ترمينا بنبل بنا استوى مغارسها منا وفينا حديدها

وفي ذلك بيان لقوة الاسماعيليين في عهد سنان ، فكانوا يتهددون صلاح الدين كما يتهددهم . ولذلك في الغالب أغضى عنهم ، وإن حاولوا اغتياله أكثر من مرة كما تدل هذه الرسائل على جرأة سنان في معاملة ملوك عصره .

ثم امعن سنان في سياسة الارهاب والتخويف ، واعتمد على أحد فدائيته في الدخول الى خيمة صلاح الدين ، برغم حيطته في فرض الحراسة المشددة . فبدل موضع المصابيح التي كانت تنير الخيمة ، ووضع خنجراً مسموماً غرسه في رغيف

(١) مخطوط اسماعيلي يحوي رسائل سنان وصلاح الدين

(٢) ابن خلكان وفيات الأعيان

(٣) مخطوط اسماعيلي في مصياف ، ص ١٥٩

حار (١) قرب رأس صلاح الدين وبجانبه قطعة من الورق كتب عليها عدة أبيات من نظم راشد الدين سنان منها .

إنا منحناك ثوباً للحياة فإن   كنت الشكور والا سوف نخلعه

قد قام قف الى قاف يزعزعه   كضفدع تحت صخر رام يقلعه

فاستفاق صلاح الدين ، ورأى الخنجر والكتاب ، فاعتقد أن سناناً من أشرف وأنبل الرجال ، إذ لو أراد قتله لما تأخر عنه بعد أن أصبحت حياته بيد ذلك الفدائي (٢) .

ولكن سناناً لم يركن للارهاب وحده ، فارسل وفداً الى خال صلاح الدين شهاب الدين الحارمي ، أمير حماه ، وصديق سنان . يعتب عليه إخلال صلاح الدين بمبدأ حسن الجوار . ويذكره بالصداقة التي تربط بينهما وينذره بأسوأ العواقب ، وهو اغتيال صلاح الدين قائلا بأن « لاأمان له عندي الا برجوعه عن قلاع الدعوة » فتوسط شهاب الدين بالصلح بين الطرفين ، وأشار على صلاح الدين بالإتفاق مع الاسماعيليين ضد الصليبيين .

ومن الجدير بالذكر أن ظروفاً طارئة حملت الطرفين على قبول المهادنة وإحلال التعاون والوئام ، بدل النزاع والخصام . وتبدلت وجهة نظر كل من الطرفين المتنازعين .

لقد أدرك صلاح الدين ، بعد حصار طويل ومفاوضات مقرونة بالتهديد ، أن شيخ الجبل : منيع الجانب قوي الشكيمة ، شجاعاً لايهاب التهديد

---

(١) يؤكد كتاب مناقب سنان بأن راشد الدين نفسه قام بتنفيذ العمل ، أنظر . R . Grosset . vol3

(٢) غالب ص ٢١٣

ولا يخشى الوعيد . تحميه قلاعه وتصــونه جباله المنيعة وتحرسه فدائيته المروعة . فلا سبيل الى إرغامه بالقوة ، ولا أمل بقهره في جباله الشامخة ، « ولا يأمن على جيشه في الدخول الى تلك الجبال » (١) .

وأخذ يفكر بترك قلاع الدعوة، لتقف حــاجزاً يرد عن سورية ، عاديات الصليبيين ويدفع خطرهم، كما برهنت الايام السالفة بأن خير من دافع عن سورية ومصر حتى عهد صلاح الدين الفاطميون في مصر ، والاسماعيليون في مصياف . وخطر له وهو يهمع لهجة سنان المتعالية المتكبرة ، أنه أمام زعيم من طراز جديد لم يألفه في ذلك العصر ، وجنح للافادة من صداقته التي قد تؤدي الى أفضل النتائج ، كما شعر بأن تشديد الضغط على شيخ الجبل الأبي ، قد يدفعه للتعاون مع الصليبيين فيتضاعف الخطر ، ويؤدي ذلك الى عكس أهداف صلاح الدين .

وتعاقبت الحوادث بعد ذلك ، فدفعت بهذه الخواطر الى حيز الوجود إذ وفد على صلاح الدين نفر من أتباعه ، أخبروه بتهديد الافرنج لقوافل المسلمين . كما أقبل ابن مقدم صاحب بعلبك ودمشق يخبره بهجوم الفرنجة على بعلبك . عند ذلك آثر صلاح الدين الصلح بعد مفاوضات قصيرة (٢) ورفع الحصــار ، عندما وعده سنان بعدم الاعتداء عليه ومهــاجمته (٣) وتضيف المصــادر الاسماعيلية الحديثة « أن سناناً وصلاح الدين اتفقا على

(١) مخطوط اسماعيلي (مناقب سنان)

(٢) ميشيل لباد ص ١٩

(٣) جورج حداد ، المدخل الى تاريخ الحضارة

شروط تنص على عدم الاعتداء ، والتعاون ضد الفرنجة ، وتؤكد إسهام الاسماعيليين بآلاف الجند والفدائيه في معركة حطين ، واغتيال ملوك الفرنجة في صور وغيرها (١) .

ونحن نميل لتأكيد هذه الروايات ، لأن ذلك ينسجم تماماً مع الحوادث المقبلة ويتفق مع المصادر الافرنجية المعاصرة ، التي تشير الى سعي الافرنج للتفاوض مع سنان ، والتحالف معه ضد صلاح الدين ، ولكنه يرفض ذلك بإباء وعزة . وتسود بين الافرنج وسنان منازعات مستمرة بعد ذلك . يعتدي فيها كونراد مونتفرات ، أمير صور على سفينة اسماعيلية في عرض البحر سنة ٥٨٨ هـ ، فيبعث اليه سنان فدائيين لقتله (٢) ، وتنتهي بنهايته حياة أكبر الخصوم في وجه صلاح الدين . وتضيف المراجع الاسماعيلية ، أن سناناً أرسل اثنين من رجاله الى صلاح الدين ، لإعلامه بنوايا شيخ الجبل ثم تسللا الى صور ، فاحتزا رأس كونراد وقدماه الى صلاح الدين ، فكافأهما وأحسن اليهما ومنحهما دقيقاً ، وأعطى سناناً عشر قرى الحقها بدولة مصياف (٣) .

ويبدو أن سناناً رأى دولة صلاح ذات صفة مباينة لدولة الفرنجة ، فهي

---

(١) تامر ، وغالب ص ٢١٣ بينما يروي ، كاتب مناقب راشد الدين (وهو مخطوط) بأن سناناً أرسل فدائيين فقط لقتل ملك صور ، خصم صلاح الدين .

(٢) أنظر Runciman ومناقب سنان

(٣) مناقب راشد الدين

دولة عربية مسلمة تجاه أعداء غير مسلمين ، وصلاح الدين شخصية جذابة تمتاز بالوفاء والاخلاص ، إمتيازها بالحزم والشجاعة . والتعاون مع صلاح الدين يتيح للاسماعليين عز الاستقلال ومجد الوحدة . لأن صلاح الدين لايطمع في هذه الدولة المنيعة التي تحمي صدر دولته من سهام الفرنجة .

وقد كانت نظرة سنان الثاقبة ، دليله في قبول الصلح الذي حفظ له دولتـــه ، ووفر له السلاح والعتـــاد الذي خلفه له صـلاح الدين لحماية حدوده (١) ، فوزعه على قلاعه . وعاش سنان وصـــلاح الدين صديقين وفيين تسود علاقتهما الصداقة والوفاء . فلم يفكر صلاح الدين عندما انتزع سنة ٥٨٤ هـ الساحل المحيط بالدولة الاسماعيلية ، من الفرنجة ، بمهاجمة سنان وقد أصبح محصوراً بين قوى صلاح الدين في الشرق والغرب ، كما لم يفكر سنان بنقض معاهدته مع صـــلاح الدين ، محافظاً على عهوده ، أميناً لسياسته ، وفياً في صداقته .

وقد استمرت اواصر الصداقة ، وحافظ كل من الاسماعيلين والايوبين على وعوده بعدم الاعتداء ، والحرص على حسن الجوار ، في عهد خلفـــاء راشد الدين سنان ، وخلفاء صلاح الدين . وسارت كلتا الدولتين نحو التفكك والانحلال ، بتأثير النزاع الداخلي ، والهجوم الخارجي ، وعكفت كل منهما على ذاتها ، تداوي جراح المنازعات والخصومات الداخلية .

٤ ـ **الاسماعيليون والمماليك** : عاشت دولة الاسماعيليين في مصيـاف ، بعد وفاة راشد الدين سنة ٥٨٨ هـ ، بمعزل عن احداث العصر ، فــلم تعد

---

(١) **مخطوط اسماعيلي « مناقب المولى راشد الدين »**

تلعب دورهـــا السابق في تقرير السياسة الدولية ، ولم يعد لها شأنها في التأثير على توجيه العلاقات السياسية . فانزوت وراء قلاع الدعوة وفي شعاب جبل البهرة ، تتأمـــل بعين الخوف والاستسلام ما يعتريها من وهن داخلي بعد سنان ، سيستمر حتى يقبل من الشرق ، الغـــازي التتري السفاح ، هولاكو ، فيحاصر اربعاً من قلاع الدعوة هي مصياف ، القدموس ، الخوابي ، الكهف ، فتسقط بيده سنة ٦٥٨ هـ ولكن الاسماعيليين يسترجعونها بعد اندحار التتر امام الجيوش المصرية السورية في عين جالوت (١) .

بيد ان الدولة الاسمـــاعيلية ، اخذت تشعر بالضعف المتزايد ، بعد التخريب التتري ، والنزاع الداخلي المستمر ، وما لبث أن عرضوا اصداقتهم على بيبرس سنة ٦٦١ هـ فأحسن اليهم ، وقبل صداقتهم ، وترك لهم حصونهم واعفاهم من الضرائب .

واخذ بيبرس على عاتقه في هذه الفترة ، توحيد الجبهة الاسلامية ، وطرد بقايا الفرنجة من سورية . ولذا شن حملات متوالية لتطهير الساحـل . وفي سنة ٦٦٨ هـ توجه لرد التتر ، الذين بلغوا الفرات من الشرق . وفي اثنـــاء عودته هاجم الساحل ، وانحدر من انطاكية نحو قـلاع الدعوة وتسلم قلعة مصياف صلحاً ، وفتح الكهف والقدموس والمينقة والعليقة . وأمّر عليها نجم الدين حسن بن الشعراني . وفرض عليـــه جزية قدرهـــا مـــائة الف درهم (٢) .

---

(١) عمر ابو النصر . قلعة ألموت . وشاكر مصطفى .

(٢) كرد علي ج ٢ ص ١٢٠ .

ثم عاود الهجوم على حصون الفرنجة (المرقب والاكراد) ، فقدم اليه الامراء المحليون فرائض الطاعة عدا نجم الدين حسن امير مصياف، الذي بعث اليه وفداً، يطلب تنقيص الجزية ، فغضب بيبرس ، وعزل نجم الدين حسن وولى مكانه صارم الدين مبارك ، صاحب العليقة على أن يقدم له خراجاً سنوياً قدره (١٢٠ الف درهم و ٢٠٠ مد شعير عن مصياف و ٢٠٠٠ دينار عن بقية الاملاك)

ولكن بيبرس كان يتحين الفرص للتخلص من هذه الدولة ، بعد زوال مهمتها في الدفاع ضد الخطر الصليبي وذلك عندما اعتراها الضعف ، وانحدر الصليبيون الى زوال اكيد وشيك ، فشن على سورية ثلاث حملات متواليه اخضع فيها القلاع الاسماعيلية الواحدة تلو الاخرى وسقطت مصياف ، وتلتها العليقة ، والكهف والقدموس . فشرد بيبرس زعماءها ونفى امراءها (١).

وهذا يؤكد ما نذهب اليه ، من ان استقلال دولة مصياف ، كان رهيناً بالتوازن الدولي . وقد أدرك شيوخ الجبل طبيعة وضعهم، فحرصوا على التوازن وانهارت دولتهم بانهيار ذلك التوازن . ومن الملاحظ ان سقوط مصياف عجل بسقوط بقية القلاع . مما يشير الى أهمية مصياف . وبذلك انتهى عهدها الزاهر واختفت من مسرح التاريخ ، كدولة مستقلة تخفق على قلاعها ألوية المجد ، لتغدو كسابق عهدها ، مقاطعة سورية ، تنتقل من حكم المماليك الى الاتراك ، فالفرنسيين ، وأخيراً تصبح منطقة من مناطق الجمهورية السورية .

(١) المقريزي - السلوك ج ٣ ص ٩٩٦ ، خلافاً لما يقوله السيد مصطفى غالب ، من معاونة الاسماعيليين لبيبرس بآلاف البحارة والجند ، واحسانه اليهم

حـ - علاقة مصياف بالفرنجة : لم يغير شيوخ الجبل سياستهم وعلاقتهم مع الفرنجة الا وفقاً لما ، تمليه مصالحهم ، كما تفعل الدول العصرية اليوم، وكما فعلت الدول المجاورة لهم أيضاً ، وقد ساءت العلاقة بين الطرفين في فترات مختلفة من الخصام والنزاع ، كانت تنتهي في الغالب، بتقديم المصالح السياسية على العواطف والاحقاد الدفينة .

وتنوعت اسباب العداوة ، وضروب الانتقام ، بتنوع العهود ، وتغير الاحوال . وامتازت بتذبذبها وتطورها معاً، والحق كانت العداوة مستحكمة لاتصال الحدّ بالحدّ ، واحتكاك الفرنجة بالاسماعيليين ، ومحاربة الفواطم وانتزاع الساحل منهم بحدّ السيف . واذ ارثت هذه الاسباب نار العداوة في كثير من الاحيان ، فقد سادت في كثير من الاحوال الأخرى علاقات الطرفين مظاهر الود ، وحسن الجوار . وذلك عندما يشتد الخطر على دولة مصياف من جهة الشرق ، وحالما تشعر الدولة الفرنجية بذلك الخطر . ولم تكن علاقة مصياف بالفرنجة الا ردأً لعدوان من الشرق ، أو اتقاء هجوم مرتقب بعد نهوض عتيد .

وعندما وطد الاسماعيليون امارتهم في مصياف ، وجدوا انفسهم أمام قوة طامعة في الغرب ، وقوة ناهضة في الشرق ، فأخذوا يعملون للتمكين لدولتهم بتحصين القلاع ، وحشدها بالجند ، وتدريب الفدائية في مدرسة الكهف . ولما شعرت دولة مصياف بنذر الخطر تلوح في الغرب ، من قبل ريموند ، أمير طرابلس الفرنجي أنزلت سلاحها الجديد ولوّحت به ، فهوى ريموند عن عرشه مضرجاً بدمه على يد أحد الفدائيين (٥٤٧ هـ ، ١١٥٢ م) .

وفي عهد سنان (٥٥٨ - ٥٩٠ هـ) مارست دولة مصياف الاسماعيلية سياسة ناشطة في كل الجهات ، وبدأ عهد سنان ، بمقاومة حملات نور الدين زنكي في الشرق، الذي اغتصب قلعة شيزر الاسماعيلية ، واستهان بقوة سنان مما دفع بهذا السياسي الطموح لمراسلة (أما لأريك) ملك الفرنجة ، لعقد معاهدة صداقة ضد نور الدين ، فشعر ملك الفرنجة بالخطر المحدق به ، هو الآخر ، من قوة نور الدين المتزايدة ، بعد توحيد الجبهة السورية - المصرية فشجع وفد شيخ الجبل ورحب به ، وعقد أواصر الصداقة بين الطرفين (٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م)(١) . ولعل دافعاً آخر اثار نقمة سنان وجنوحه للتعاون مع الفرنجة يتلخص باعتداء نور الدين على أملاكه في سورية، واغتصاب عرش الفواطم في مصر .

بيد ان مجيء صلاح الدين الى سورية . واتفاقه مع شيخ الجبل سنان ، بعد ثلاثة أعوام ، حول مجرى السياسة بين الطرفين ، حتى وفاة سنان واتاح لدولة مصياف ان تلعب دوراً هاماً في حماية قلب الوطن من سهام الفرنجة وقدر لهذه الدولة ان تسهم في عهد سنان بتقويض ملك الفرنجة الغاصبين .

فلا يكاد اتباع كونراد مونتفرات ، يعترضون سفينة عربية لشيخ الجبل تروح وتجيء بين شواطىء سورية ومصر ، حتى يرسل راشد الدين وفوده مطالباً بفك الاسرى وتسليم الاموال والسفينة . واذ يرفض ملك الفرنجة المتكبر طلب شيخ الجبل ، وخصم صلاح الدين العنيد (٢) ، يسلط عليه شيخ الجبل بعض فدائيته، فيحتزون رأسه ويقدمونه هدية لبطل الوحدة السورية

(١) انظر Runciman

(٢) انظر نفس المرجع

المصرية ـ الملك الناصر صلاح الدين (١)

ولعل راشد الدين ، كان يميل للحياد ، حرصاً على سلامة اتباعه ، لولا نقض الفرنجة للعهود ، وتعرضهم لسفنه التجارية ، فاراد ان يفيد من هذه السانحة ، بتلقينهم درساً وعبرة للمستقبل ، وتحذيراً لسواهم من الخصوم . ويؤكد بنفس الوقت فائدة الصداقة المتوثقة بينه وبين صديقه الشهم ، صلاح الدين لمصلحة الوطن العربي .

فيدرك الفرنجة خطر الرجل ، ويبذلون له الوعود ، ويتظاهرون بالود عبثاً ، ثم يأتي الحسن بن سنان ويشعر الفرنجة بعد وفاة سنـــان ، بالفراغ الهائل الذي خلفه ، فيروع ، هنري دوشامبانيا ، وكان ذاهباً الى انطاكه ، لزيارة شيخ الجبل ، الذي خف لاستقباله ، ودعاه لزيارة قلعته وكان يتولى حراستها جماعة من الاسماعيليين بالثياب البيضاء (٢) وهناك تمكن من فرض هيبته على ضيفه . وافهمه مدى الطاعة والشجاعة التي يتصف بها انصاره اذ أمر رجلين ، ان يلقيا بنفسيهما ، من على ابراج القلعة الشاهقة لدى اشارة من « الشيخ » عمد اثنان من الحرس الى الالقاء بنفسيهما من على البرج فتمزقا شر ممزق (٣) رغم توسلات هنري . والتفت شيخ الجبل ليقول لضيفه : هل يفعل رجالك مثل هذا ؟؟ فيجيب هنري بتأثر بالغ . « لا يوجد بين جنود فرنسا من يفعل ذلك » يا سيدي .

---

(١) انظر ، مصطفى غالب و « عارف تامر » « سنـــان وصلاح الدين » ومناقب راشد الدين (مخطوط) .

(٢) فيليب حتى تاريخ سورية ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) حتي ج ٢ ص ٢٤٧ .

ودام عهد من الهدوء بين الطرفين ، حتى بدأ الفرنجة أعمال الغدر والتخريب في دولة مصياف ، وشن ريموند ، الولد الاكبر لبوهيموند، ملك انطاكيه هجوماً عنيفاً على املاك الاسماعيليين ، وحاصر قلعة الخوابي سنة (٦١٠ هـ - ١٢١٣ م) فلقي مصرعه بكنيسة طرطوس بطعنة نجلاء ، صوبها فدائي من اتباع شيخ الجبل (١) والتفت شيخ الجبل نحو اصدقائه الأيوبين يذكرهم بالصداقة ، ويهدد الفرنجة بذلك ، فوقفوا الى أجل.

ولكن الظروف الدولية المتغيرة ، وهجوم المغول على دولة ألموت في فارس ، دفعت داعي الدعاة سنة ٦٣٦ هـ لمراسلة ملوك فرنسا وانكلترا ، طالباً اليهم التحالف معه ، لمقاومة الخطر المغولي المشترك . فلما مثل رسول الاسماعيلين بين يدي الملك هنري الثالث ، قال اسقف ونشستر ، الذي حضر الاجتماع . « لندع هؤلاء الكلاب ، يفترس بعضهم بعضاً ثم ننشيء كنيسة كاثوليكية على انقاضهم . ولقد اختلف زعماء الاسماعيلية في تكوين هذا الحلف ، الذي لو نجح ، لنشأت في الشرق الاسلامي حروب على غرار الحروب الصليبية ، قد تغير مجرى التاريخ الاسيوي الاوروبي لعدة قرون (٢) .

وبعد ما حل بملك فرنسا لويس ، على يدي المصريين في دمياط سنة (٦٥١ هـ - ١٢٥٤ م) من هزائم مروعة ، اخذ يفتش عن حليف يعتمد عليه في صراعه المقبل ، فوجه همه شطر شيخ الجبل في مصياف . وخيل اليه ان الخطر المغولي الداهم من جهة الشرق ، والذي يهدد الطرفين ، قد يجعل شيخ الجبل يلبي دعوته سريعاً ، فأخطأ التقدير ، لان شيخ الجبل

---

(١) انظر Grosset . vol3

(٢) شاكر مصطفى ج ٢ ص ٤٢٥

في مصيـــاف يختلف عن زميله في فـــارس ، برغم مـا اعتراه من وهن وذلك لما تتصف به أملاكه من مناعة طبيعية ، وعزلة جغرافية . ولم يجد شيخ الجبل حرجاً قبل قليل في ارسال وفد ، الى عكا لمفاوضة الملك لويس على شراء سكوت شيخ الجبل ، ووقوفه على الحيـــاد ، بجزية سنوية تدفعها فرنسا للاسماعيليين وعندما يرفض ملك فرنسا مطالب شيخ الجبل بجفـاء وغلظة أمام قادة الجمعيات الحربية . يميل شيخ الجبل للتساهل ، ويجد لويس رغبة ملحة ، بعد فشله في مصر ، وما يراه من خطر المغول في الشرق ، في التساهل أيضاً . ويبعث بوفد يرأسه (إيف البريتوني) لتوقيع معـــاهدة بين الطرفين .

وكم كانت دهشة هذا الاوربي كبيرة ، عندما عثر في مكتبة شيخ الجبل في مصيـــاف ، على إنجيل ، وكتب أخرى تشير الى أن بطرس هو تقمص وتجسيد ، لهابيل ونوح وإبراهيم . وقد بالغ أهل مصيـــاف بإكرام هذا السفير ، وقدموا له بعض التحف المحلية والهدايا الجميلة منها : زرافة بلورية ، ولوحة شطرنج ، « وخاتم وقميص » ، فقـابل لويس ذلك بالمثل وبعث الى شيخ الجبل بأقداح من الفضة والذهب (١) ، عربون صداقة ووفاء ، بعد أن حاول الاسماعيليون اغتياله في فرنسا قبيل قيامه بحملته الفاشلة ، مما يشير الى أن نطاق نشاطهم قد امتد الى غـربي أوروبا ، كما بلغ منغوليا في الشرق إذ حاولوا اغتيال أحد الخانات أيضاً (٢) .

بيد أن هذا لا يعني تعاون الاسماعيليين مع الفرنجة ، كما لا يعني أن مفهوم

---

(١) انظر R . Grosset

(٢) فيليب حتي ج ٢ ص ٢٤٧

عصرنا الحاضر ، قد ساد فيما مضى . بل لم يكن بمقدور ذلك العصر ، الذي انقادت فيه الدولة للدين ، وسيطرت فيـــه العقيدة على شؤون السياسة . ترسم خطا الدول القومية كما هو الشأن اليوم . وقدمت لدى الجميع في العصر الوسيط ، مصالح الطائفة على المصالح الأخرى ، وما لبثت دولة مصياف أن انحـــازت صراحة لخصوم الفرنجة بعد ما لمسته من تعاونهم مع التتر . وتعاونت مع الظاهر بيبرس (١) كما تعـاونت سابقاً مع صلاح الدين ، في تطهير أرض الوطن من الصليبيين . ولعله من الانصاف أن نؤكد ، أن دولة مصياف ، وقفت على الحياد وساهمت في تحرير الوطن ورد" العدوان كما فعلت دولة الفواطم في مصر . ولم يكن نصيبها من التضحية بقليل رغم تهجم الغلاة .

خاتمة الكتاب

وهكذا نتج عن لقاء الاسلام بالحضارات الغابرة ، العديد من الفرق ، من اهمها الحركة الاسماعيلية المتفرعة عن الحركة العلوية .

وقد امتازت الاسماعيلية بتطورها الدائم ،وشمولها الجامع. كما اتصفت بالتطرف والجدة والابداع . فكانت تجسد المجتمع والعصر والانسان ، تجسيداً ثورياً مبالغاً فيه ،لتخرج بالتاريخ وتصنعه من جديد. وهذا يفسر

---

(١) أنظر مصطفى غالب ، تاريخ الدعوة . (كان التعاون في الواقع من جانب الاسماعيليين الذين أخلصوا في تعاونهم . ولا نرى بيبرس يستمر على ذلك ، بل يتنكر لصداقته ويسحق الاسماعيليين الى الابد (حتي) عند سنوح الفرصة ، ويحتل مصياف وينفي زعماءها م لباد .

لنا ، ابداعها أول اشتراكية عربية عجيبة ، واول منظمة سرية رهيبة واول جمعية علمية تنتج اول موسوعة علمية في العالم كما نعتقد . وتعتبر من الحركات الجدلية الشاملة في تاريخنا ، فأنشأت الدول ، وتمخضت عن حركة علمية فلسفية فذة تمثلت في « اخوان الصفا » واسست اكبر مدن العرب (القاهرة) ، واعظم جامعات الاسلام واقدمها (الأزهر) ، وخلفت تراثاً فكرياً وأدبياً وفنياً ممتازاً .

والحركة الاسماعيلية ظاهرة اجتماعية، نبتت في قلب الحضارة العربية ونمت معها ، وهي كغيرها من الظواهر مرت بأطوار الطفولة والشباب والشيخوخة وبزغت في السواد، وانتشرت من سورية وحطت آخر رحالها في جبال البهرة في سورية . ومن هناك شنت على خصومها حملة من الاغتيالات حتى حولتهم الى أصدقاء ، ولكنها بذلك اعلنت عجزها عن متابعة النضال السلمي . لذا احتمت خلف ستار الحركة السرية وأسوار القلاع الحربية متنكبة السبيل المألوف ، خارجة على ما اعتاده الناس من تقاليد . ولا عجب في ذلك فالحرمان والقسر يدفعان بكل حركة لتخطي الحواجز الاجتماعية .

ومما يسجل لدولة مصياف الاسماعيلية انها حمت ببسالتها قلب الوطن من عدوان الفرنجة ، وحافظت على قبس الفكر في عتمة عصور الانحطاط يوم جرف الطوفان المغولي بقايا السيادة العربية .

وبعد أليس من المحتمل اذاً للناس ، ان يعيشوا بسلام ، في هذا العالم المفعم بالجمال ، تحت سماء ذات نجوم ؟ » لقد طلق الاسماعيليون احلامهم وجنحوا للسلام لذا قال عنهم روسو « انهم على جانب كبير من الكرم ولطف الاخلاق ويتمسكون بأهداب دينهم الذي يخالف مذهبهم القديم وهم اشداء عند الحاجة » . والحق لقد هجروا اسوار القلاع بعد ان بهروا التاريخ ، ليستقروا في صفحاته ، أمثولة غابرة لملحمة العربي الثوري في صراعه مع القدر .

بعض مصادر البحث

١ - ابن الاثير	الكامل في التاريخ	المطبعة الكبرى بمصر (١٢٩٠)ﻫ

٢ - ابو شامة	ذيل الروضتين	مطبعة وادي النيل (١٢٧٨)ﻫ

٣ - ابن القلانسي	ذيل تاريخ دمشق	المطبعة اليسوعية ببيروت ١٩٠٨

٤ - ابن شداد الموصلي النوادر السلطانية	مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٢

٥ - اسامة بن منقذ الاعتبار	جامعة برنستون ١٩٣٠

٦ - ابن تغري بردي النجوم الزاهرة	مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٠

٧ - المقريزي	السلوك	مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٣٤

٨ - ابو الفداء	تقويم البلدان	باريس ١٨٤٠

٩ - ياقوت الحموي معجم البلدان	مصر ١٩٣٨

١٠ - ابن العديم زبدة الحلب (في مجلدين) دمشق ١٩٥١ - ١٩٥٤

١١ - عبد الله عنان الجمعيات السرية	دار الهلال ١٩٣٦

١٢ - عمر ابو النصر قلعة ألموت	دار الاحد ١٩٤٦

١٣ - شاكر مصطفى في التاريخ العباسي ج ٢ (على الآلة الطابعة)

١٤ - عارف تامر سنان وصلاح الدين	بيروت ١٩٥٦

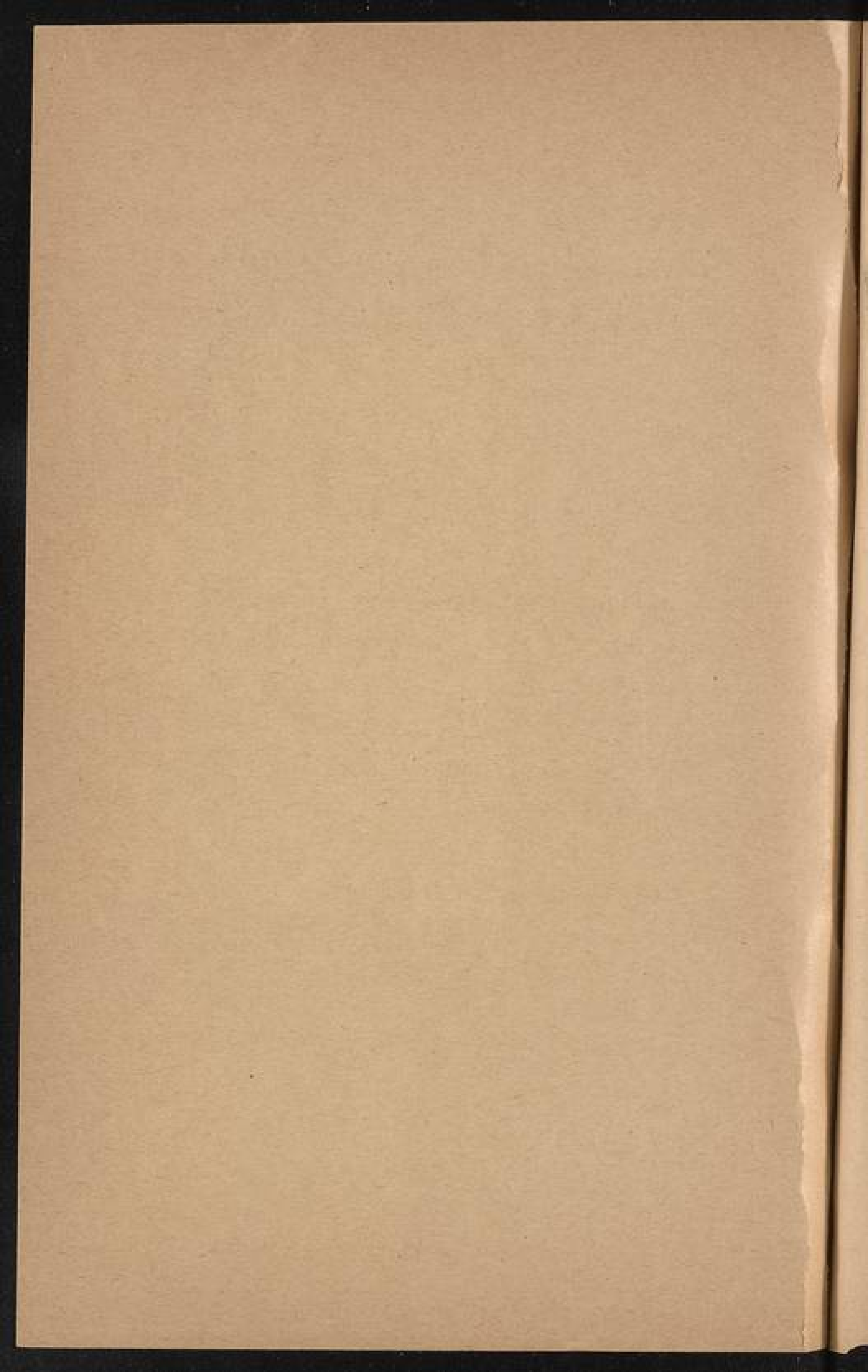
١٥ - ميشيل لباد تاريخ قلعة مصياف	(رسالة جامعيه)

١٦ - القلقشندي صبح الاعشى	المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩٢٤

١٧-الموسوعة الاسلامية ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه
١٨-دائرة معارف البستاني
١٩-محمد كرد علي خطط الشام مطبعة الترقي بدمشق ١٩٢٧
٢٠-فيليب حتي تاريخ سورية وتاريخ العرب، الترجمة العربية
٢١-حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي ج ٣
٢٢-دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة ابو ريدة ط ٤
٢٣-مصطفى غالب تاريخ الدعوة الاسماعيلية
٢٤-بعض المخطوطات الاسماعيلية في مصياف .

٢٥ La guides blues . M . Monmarche. Paris 1932
٢٦ Topographie historique . R . Daussaud . paris 1927
٢٧ La syrie Antique » » » »
٢٨ Histoire de La Croisades , R ,Grousset . V ol 3
٢٩ History Of Crusades . Runciman . Vol 3 1955
٣٠ Arban life In Syria. N . Ziadeh . Beirut .1955
٣١ Ensyclopaedia Britannica
٣٢ Syria . R . F edden . London 1955

ملاحظة : نعتذر عن بعض الاخطاء المطبعية التي وردت سهواً



تحت سماء الشرق البرّاقة ، ظلت العقائد الدينية تصنع التاريخ ، وتقود الجماهير أطول حقبة من التاريخ .

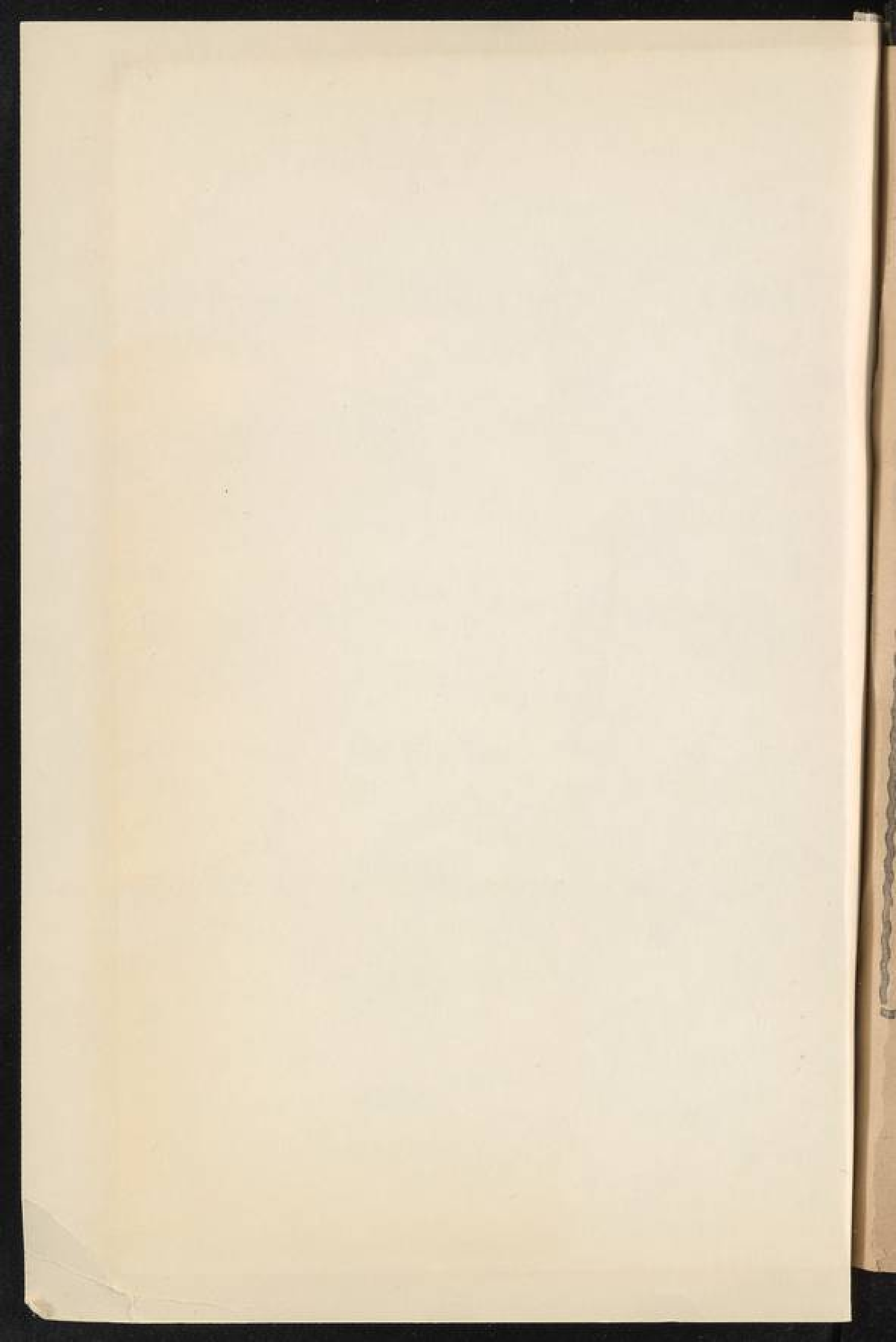
وما الحركة لاسماعيلية الا محاولة جدية ، لصنع تاريخ جديد ، يجمع بين العقل والدين ، والثقافة النظرية والتنظيم السياسي .

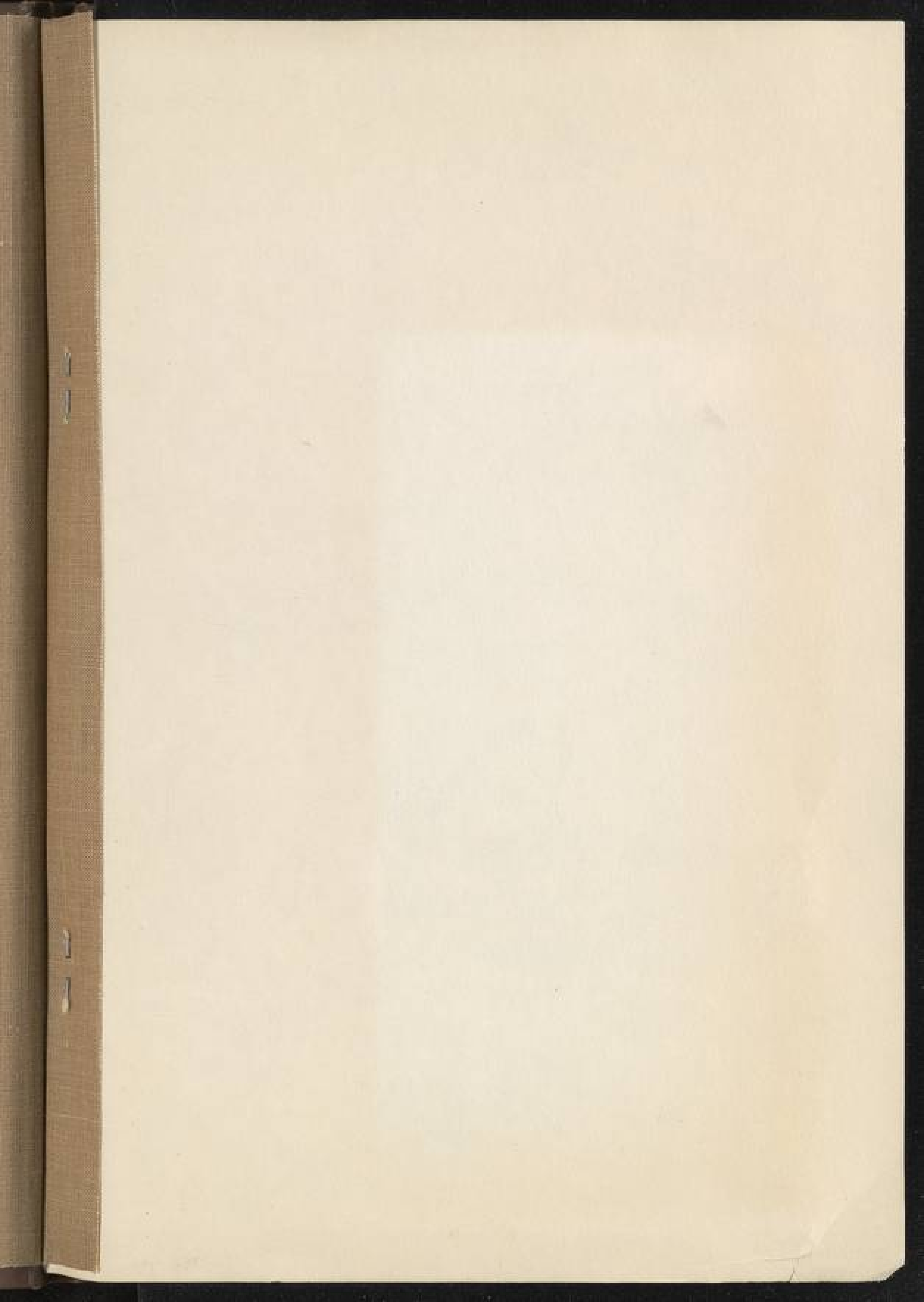
وهي اذ تنمو مع ازدهار الحضارة العربية ، وتمد بظلالها على أوسع البقاع . ماتلبث ان تتقاص وراء قلاع فارس وسورية .

لقد انطلقت من السلمية لتكتب آخر فصولها في مصياف ، حيث واجهت أقوى الدول الصليبية والاسلامية ، بحفنة من بواسل الفدائية ، تلك المنظمة العجيبة التي ابدعها ابن الصباح ، واستغلها راشد الدين سنان ، أدهى شيوخ الجبل وأعلمهم ، في اغتيال خصومه من الصليبيين والمسلمين وارهابهم . ليضمن لدولته الاستقلال . حيث بدأت تزدهر رسائل اخوان الصفا ، ويتفتح الشعر والادب .

وميزة هذه المحاولة المتواضعة ، انها بحثت لأول مرة ، فيما نحسب تاريخ دولة مصياف ، وجمعت بين نشر الاخبار والافكار ، وربطت الدعوة

بتجلياتها : العقائدية والسياسية والثقافية في كل موحد .






COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58837388
893.796 L11
Ismailiyun wa-al-daw